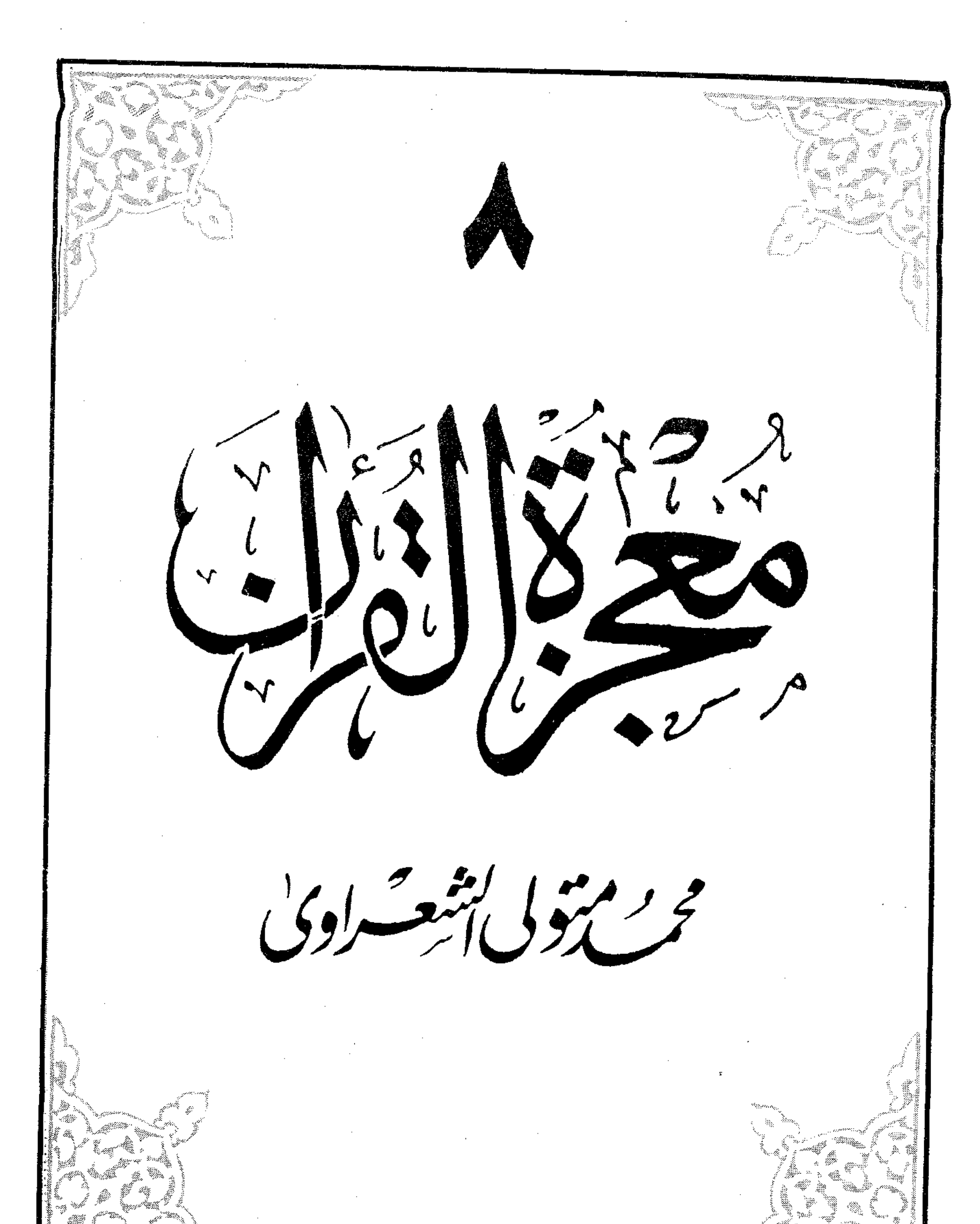
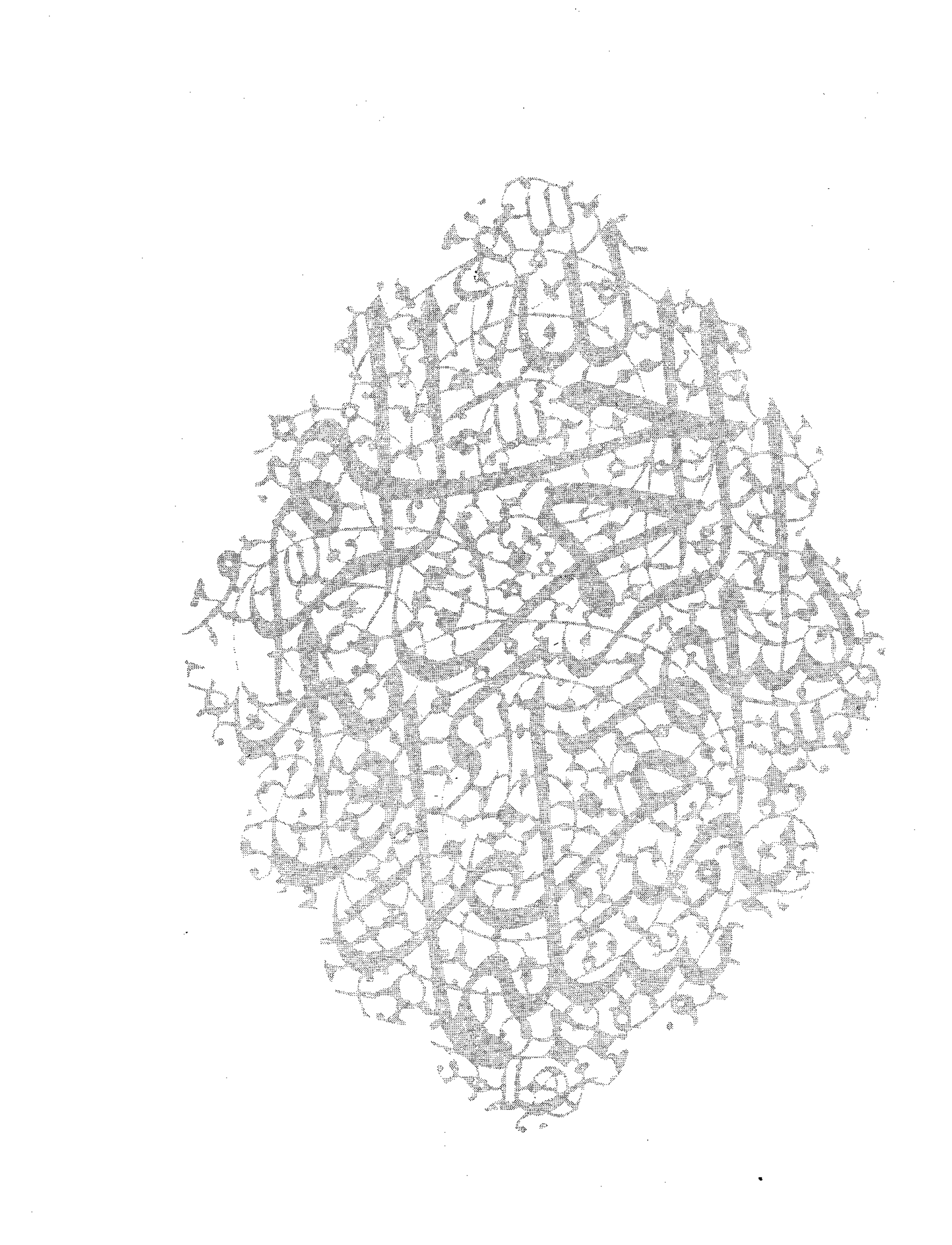


٨
معجزة القرآن
محمد متولي الشعراوي

أخبار اليوم
ادارة الكتب والمكتبات



الفصل الأول

لماذا اختل الميزان؟

لمـاذا اختل الميزان ؟

عندما نتحدث عن الإسلام فإننا نتحدث عن منهج الله الذى رسمه سبحانه وتعالى للحياة فى الأرض . وهو المنهج الذى لن يصلح الكون إلا إذا تم تطبيقه .. ذلك أنه لا يوجد من هو أعلم من الله .. وأحكم من الله .. ليرسم لنا طريق الحياة الآمنة المطمئنة على الأرض .

والله هو الذى خلق الإنسان .. وليس أدرى بالشىء من خالقه أو صانعه .. فهو الذى يضع له قانون تشغيله .. وقانون صيانته .. ليؤدى مهمته على أكمل وجه .. ولقد أراد الله سبحانه وتعالى برحمته أن يفهمنا ذلك فجعل ذلك قانونا أرضيا لا تصلح الحياة إلا به .. فإذا أخذنا التليفزيون مثلا .. فإن أول من يضع قانون تشغيله هو الذى اخترعه .. وهو يقول لك أفعل كذا واضغط الزر رقم كذا ليعطيك الصورة ، ورقم كذا ليعطيك الصوت .. ثم يضع الصانع « كتالوجا » مع الجهاز يدرسه المتخصصون ويرجع إليه الناس إذا فسد الجهاز وأرادوا إصلاحه .. فإذا ذهبت لتحضر نجاراً أو حدادا ليصلح جهاز التليفزيون فإنه يفسده .. وإذا قلت للناس ذلك فإنهم يسخرون منك .

والعجيب أن هؤلاء الناس الذين يسخرون منك إذا فعلت ذلك بالنسبة لأى اختراع أو آلة .. فإنهم هم أنفسهم الذين يحاولون مقاومة تطبيق نفس النظرية على الإنسان .. فالله سبحانه وتعالى هو الذى خلق هذا الكون .. وخلق الإنسان ووضع القوانين التى تمضى بها الحياة كلها .. ولكن الناس تأتى لتحاول أن تفسد الكون بأن تضع له القوانين التى تروقها .. تماما كما تحضر الحداد أو النجار ليصلح جهاز التليفزيون .. وهى بذلك تدعى ـ بلا حياء ـ أنها أعلم من الله بخلقه ، وأعلم من الله

بأسرار كونه .. فبدلا من أن تأخذ قوانين الله الخالق والصانع .. تحاول أن تضع هى القوانين .. فنرى القانون الرومانى والقانون الفرنسى .. إلخ .

فساد قوانين البشر !

ويمضى الزمن ويظهر فساد قوانين البشر .. وأنها لم تجلب إلا الشقاء للبشرية .. فيأخذون فى تعديلها بحجة معالجة المشكلات التى ظهرت عند التطبيق .. وبعد عدة سنوات يتبين أن التعديل لم يصلح شيئا ، فيتم تعديل التعديل .. وهكذا تمضى القوانين البشرية فى حلقة مفرغة .. تتزايد معها المشكلات وتتفاقم معها الداءات . ولكن أحدا لا يفكر أبدا فى أن يريح البشرية فيرجع إلى قوانين الله .. لأن هذه القوانين البشرية كلها لا تصلح حياة الإنسان فى الكون .. بل تفسده .

وإذا نظرنا للعالم اليوم نجد أنه يملؤه الشقاء .. ولو استمعت إلى أى نشرة أخبار فى الإذاعات أو فى الصحف .. لوجدت أنها تحمل من أخبار الدمار والخراب والقتل والحروب .. أكثر مما تحمل من أخبار الخيروالبركة و الحياة الآمنة للناس .. والحل هو تطبيق قوانين الله .. وهذه ستأتى عن اختيار أو عن اضطرار .. لأنه لا طريق غيرها .. ولكنها ستكون اضطرارا بعد تجارب مريرة ، وشقاء بشرى يمر به العالم .

وقبل أن نبدأ فى الحديث عن حتمية الحل الإسلامى للبشرية كلها .. لابد أن نفرق بين قوانين الأرض وقوانين الله ذلك أن هناك فرقا جوهريا

لمـاذا اختل الميزان ؟

قد لا ينتبه إليه الكثيرون .. فقوانين الأرض عند التطبيق لا تقتضى أى نوع معين من السلوك .. ولكن قوانين الله تقتضى مع التطبيق سلوكا بالعمل ..ومأساة هذا العصر ليست فى أن نصل إلى النص الواضح فى قوانين الله .. ولكن القدوة السلوكية هى القليلة .. بل النادرة .. وقوانين الله محتاجة إلى سلوك .. وإلى قدوة وهذا ما يغيب عنا .

ونفسر ذلك قليلا .. ان الله سبحانه وتعالى يريد من المؤمنين أن يطبقوا قوانينه .. و أن يطبقوها أولا على أنفسهم .. فإذا لم يبدأ الإنسان بنفسه .. انتفت القدوة الإيمانية التى تجعل الناس يستمعون إلـيـه ويصدقونه .. ونحن فى عصر جرب الإنسان فيه كل شىء ، وكل نظريات الدنيا التى تبدو براقة .. ووجد فيها الشقاء والتعاسة .. ولذلك أصبح يحن للرجوع إلى الدين ليخلصه من هذا الشقاء ولكن الرجوع إلى الدين تلزمه القدوة فيمن يقدمون النصيحة .. أو كما قلت أن يطبق الإنسان ما يقوله على نفسه أولا .. ولقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم :

﴿ أنا لا آمركم أمرا أنا عنه بنجوى ﴾

ومن هنا فإن أهم ما يلزمنا ليس تعليم الدين فقط .. ولكن سلوكيات الدين .. فهذه هى التى تصنع .. وهذه هى التى تبنى .. وأنا عندما يأتينى رئيس عمل ولا أراه متميزاً عنى إلا بالشقاء فى عمله ، والدقة فى حضوره .. فإذا طلب منى أى شىء فإننى أقوم به عن طيب خاطر .. ذلك أننى أحس أنه غير متميز عنى إلا بكثرة مسئولياته .. وهو فى هذا يعطينى القدوة السلوكية التى رسمها الإسلام .. والإسلام دين الحق ..

لمـاذا اختل الميزان ؟

ولقد قال لى أحد المستشرقين الذين اعتنقوا الإسلام : إنه آمن بهذا الدين لأن الرسول كان يكره أن يتميز على أصحابه .. ولو أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يكن رسولا .. وكان يأتى بهذا الدين من عنده .. لكان له هدف من ذلك .. فكل من يكذب يفعل ذلك لهدف .. والكذب فى مدعى النبوة أنهم يريدون أن يسيطروا أو يحكموا أو يحصلوا على نفع عاجل من الذين يدعونهم إلى الدين الجديد .

محمـــد .. القــدوة

ولكن محمداً صلى الله عليه وسلم كان قدوة سلوكية .. فلم يكن يبغى السيطرة .. بل كان يقول دائما : إنه بشر رسول .. ولقد عرضوا على رسول الله فى أول الأمر وبدون جهد أو تعب أن يعطوه من المال ما يريد .. فلما رفض عرضوا عليه الملك إن أراد .. فلما رفض عرضوا عليه الزعامة والثروة والجاه والسلطان وكل ما تستطيع الدنيا أن تهبه .. كل هذا وهو فى أول الطريق ولكنه رفض هذا كله .

إذن فالغاية التى من أجلها يدعى الناس النبوة .. أو يبتدعون النظريات .. الغاية ، وهى زينة الدنيا بما فيها ، قد رفضها رسول الله من أول الطريق .

وعندما وجد من يصافحه يرتعد من الانفعال لأنه يصافح رسول الله قال له : هون على نفسك فأنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد ، أى الخبز الجاف .. وهكذا رفض أن يكون متميزاً فى علاقته مع أى ممن اتبعوا دين الإسلام .

لمـاذا اختل الميزان ؟

وعندما مات ابنه ابراهيم عليه السلام .. حدث خسوف فى الشمس .. وقال الناس : ان الشمس قد انخسفت حزنا على وفاة ابراهيم .. فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال :

﴿ إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تنخسفان لموت أحد ﴾ .

وهكذا أرادوا أن يضعوا له مجدا يعطيه السيطرة على القوى الهائلة فى الكون .. ولكنه رفض أن يقبل ذلك .. وكان دائما يباهى ببشريته ، وهذه ليست صفات من يدعى النبوة .

وأخيرا فإنه يحدث فى بعض الأحيان أن تكون المثل عند الإنسان أكبر من حجم الدنيا . لأنه لم يذق حلاوة المجد والحياة والسلطان والمال ونعيم الحياة .. ولكنه حين تقبل عليه الدنيا قد تتغير مثله وقيمه .. فكم من انسان بدأ مكافحا ، حتى إذا حقق لنفسه الثروة نسى المثل التى قامت عليها حياته .. وأباح لنفسه ما كان يحرمه عليها .. ولذلك نسمع من كثير من الذين قادوا ثورات الإصلاح فى العالم أنهم انحرفوا عن الطريق .. وأنه لابد من تصحيح مسار الثورة .. وابعاد المنحرفين عنها ..

ولكن رسول الله صلى الله عيه وسلم رفض بعد أن انتصر الاسلام وانتشر فى الجزيرة العربية وثبت أقدامه .. رفض أن يحصل على ميزة شخصية .. فلا هو بنى لنفسه قصرا .. بل ظل يعيش فى بيته .. ولا هو أنشأ لنفسه حرسا مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ ﴾

« سورة المائدة ـ الآية ٦٧ »

ولا هو كان بيته ممتلئا بالولائم وفاخر الطعام .. بل كان كما قالت السيدة عائشة رضى الله عنها تمر الأيام ولا توقد فى بيتنا نار .. فكان يعيش على التمر والماء .. ولا هو حقق لزوجاته ثروة من مال الدنيا .. بل منع عنهن الغنائم دون سائر نساء المسلمين .. ولا هو ترك ثروة لذريته ، بل قال : لا لنفسى .. ولا لذريتى .. نحن معشر الأنبياء لا نورث .. وما تركناه صدقة .

وينهى المستشرق حديثه .. بأن رجلا هذا خلقه لابد أن يكون صادق الرسالة .. ورسول الله الحق الأمين .

أمثلة من الحيـاة

وإذا كانت البشرية تعانى ما تعانى فإنها لابد أن تعود مضطرة ومقهورة إلى قوانين الله فى الأرض إذا أرادت إصلاحا .. وفى ذلك نستطيع أن نضرب الأمثلة التى بدأت تتحقق .

أول هذه الأمثلة هو الطلاق .. والله سبحانه وتعالى أباح الطلاق . لأن الحياة لا تستقيم إلا به .. وجاءت الكنيسة الكاثوليكية تحرم الطلاق ، وتدافع عن ذلك بأنه حفظ لكيان الأسرة إلى آخر ما قيل وما يقال .. ومضت السنوات وتفاقمت المشكلات ، وبدلا من أن يحفظ عدم الطلاق الأسرة هدمها .. وانحرف الزوج .. وانحرفت الزوجة .. وضاع

الأولاد .. واضطرت الكنيسة الكاثوليكية مرغمة أن تبيح الطلاق. .. لم يحدث ذلك اقتناعا بالدين الإسلامى .. ولا إيمانا بقوانين الله .. ولكنه حدث لأن الحياة لا تستقيم بدونه

والمثل الثانى مسألة أن ترضع الأم طفلها .. حكم من الله سبحانه وتعالى أن تكون الرضاعة مدة عامين ، مصداقا لقوله سبحانه :

﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾

« سورة البقرة ـ الآية ٢٣٣)

وجاءت المجتمعات غير الإسلامية لتقدم نوعا من اللبن للأطفال يعطى لهم بعد أسابيع من الولادة .. وقالت : ان هذا اللبن يعطى الطفل من العناصر الغذائية ما لايعطيه له لبن الأم .. وصدق الناس هذه النظريات ، واندفعوا بلا وعى وراء ألبان الأطفال التى تبيعها الصيدليات .. وضاع الزمن ، وهذا الوهم الكبير يسيطر على العالم .. إلى أن اكتشفوا أخيرا الأضرار الهائلة التى تحدث للطفل الذى لم يرضع من لبن أمه .. ومن نفس المكان الذى انطلقت منه نفس الصيحة عن الألبان من غير لبن الأم التى تعطى للأطفال .. انطلقت الصيحة هذه الأيام لتقول : ان الطفل الذى لا يرضع من لبن أمه ينشأ عليل الجسد عليل النفس .. وأن الأم لابد أن ترضع طفلها إذا كانت تريد أن ينشأ ابنها نشأة طبيعية .. وهكذا عادت المجتمعات الغربية التى تبهر بعض الناس بما يسمونه التطور العلمى .. عادت هذه المجتمعات إلى قانون من قوانين الله ، وأن الأم لابد أن ترضع طفلها .. عادت إلى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ﴾

هل عادت بالإيمان .. ؟ .. هل عادت لأنها آمنت بالإسلام ؟ .. لا .. لكنها عادت لأن الكون لا يصلح إلا بقوانين الله .

والمثال الثالث هو عقوبة القتل .. والله سبحانه وتعالى قد شرع هذه العقوبة ، جزاء لقتل النفس البشرية والفساد فى الأرض .. فقال سبحانه وتعالى .

﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ ﴾

« سورة المائدة ـ الآية ٣٣ »

كما شرع الله سبحانه وتعالى عقوبة القتل بالنسبة للقاتل .. قال سبحانه وتعالى :

﴿ وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ ﴾

« سورة المائدة ـ الآية ٤٥ »

وجاءت بعض المجتمعات الأوربية وألغت عقوبة الإعدام .. وصفق الناس وهللوا .. وقالوا هذه هى المدنية .. ومن هذه الدول : بريطانيا وإيطاليا .. ومرت السنوات ، وإذا بالجريمة تنتشر فى هذه المجتمعات انتشارا مروعا ، حتى ازداد معدلها بنسب كبيرة .. وإذا بنفس هذه الحكومات التى قالت بأن ذلك مدنية .. تطالب مرة أخرى بعودة عقوبة

الإعدام كحل ضرورى لمواجهة زيادة الجرائم وبخاصة جرائم القتل والتخريب ..

الاقتصـــاد .. والإســـلام

والمثال الرابع فى الربا .. ونظرة واحدة إلى الاقتصاد العالمى الآن ترينا ماذا فعل الربا .. فقد وقعت كل دول العالم فى الديون .. الدول الغنية والدول الفقيرة . وفى كل يوم يزداد الأغنياء غنى ، ويزداد الفقراء فقرا .. اختل الميزان الاقتصادى للعالم كله .. واجتمع خبراء الاقتصاد فى العالم وقالوا إنه لا حل للمشكلة الاقتصادية .. إلا أن يصبح سعر الفائدة فى العالم صفرا .. ولو أنهم كانوا منصفين لقالوا : انه لا حل للمشاكل الاقتصادية فى العالم والربا موجود .. ولكن كلمة الحق لم تكن تخرج من أفواههم فقالوا سعر الفائدة لابد أن يساوى صفرا .

وعلى أية حال .. فلن يعتدل النظام الاقتصادى فى العالم مادام التعامل يتم بالربا .. فإذا انتهى التعامل بالربا انصلح اقتصاد العالم .. تلك القضية التى لابد أن نفهمها .. أن العالم كله لابد أن يعود إلى القوانين التى شرعها الله للحياة على الأرض حتى تستقيم الأمور .. فإن لم يعد باختيار وإيمان .. فسيعود مضطرا بعد تجربة مريرة تعانى منها البشرية الويل .. وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾

« سورة الصف ـ الآية ٩ »

أى أن منهاج الإسلام ومبادئه ستسود العالم كله ولن تستقيم الحياة بدونها .

الله سبحانه وتعالى أعطانا هذا المنهاج هدية من عنده .. وبين لنا الطريق فى رحمات تنزلت علينا .. و هو يريد بذلك أن يقينا سوء التجربة والخطأ التى سنمر بهما .. ثم بعد ذلك نعود إلى منهج الله .. و لكننا رفضنا هذه النعمة وبدأنا نبحث عن المدنية .. التى هى فى الحقيقة تحاول أن تهاجم الإسلام وتظهره بمظهر الرجعية والوحشية .. وفى ذلك يتحدثون عن عقوبة قطع يد السارق وكيف إنها وحشية .. وينسى هؤلاء أنه فى كل صباح فى العالم تقطع مئات الأيدى والأرجل فى الحروب الصغيرة التى أصبحت تدور فى كل مكان .. وفى حوادث الخطف والنهب والاعتداء على الأعراض التى زادت بنسب هائلة فى كل انحاء العالم .. أن الأيدى التى تقطع فى لبنان وحدها كل صباح .. أكثر من الأيدى التى قطعت كقصاص من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يومنا هذا .. فأين هى الوحشية .. ومن هم المتوحشون ؟ ومن هم المتمدينون ؟

على أن الله سبحانه وتعالى فى كونه آيات كثيرة تظهر إعجاز الله .. ونحن لا نفهمها .. فقوانين الكون .. وقوى الكون التى تحارب هذا الدين إنما تظهر الحق فيه .. وذلك أن الجمال فى الكون هو أن يوجد الشر بجانب الخير .. وأن نرى الحق ينتصر على الباطل .. فالله سبحانه وتعالى حين وضع قوانين كونه .. وضعها بحكمة ودقة .. ليسير الكون إلى غايته .. فالله سبحانه وتعالى جعل لكل مجد نصيبا ليكون هناك

العمل .. فلو أن الطالب الذى يذاكر نجح .. والطالب الذى لم يذاكر نجح .. لاختفى الجمال فى الكون .. لماذا ؟ .. لأنه فى هذه الحالة لن يذاكر أحد ، وسيصبح الناس أميين وتنتهى حضارة البشرية التى أرادها الله للإنسان .. ولكن الجمال فى الكون هو أن يرسب الذى لا يذاكر ، وينجح الذى يذاكر .. وأن يتم كشف أسرار الكون للعالم الذى يبحث عنها .. ولا يتم لمن لا يبحث .. وأن يعرف الذى يدرس أكثر من الذى لا يقرأ .. تلك أسباب وضعها الله سبحانه وتعالى ليرقى الكون المخلوق الله إلى الحضارة التى خلقها الله .. ولو أعطى الله سبحانه وتعالى الحضارة للإنسان بدون علم لحطم نفسه وانتهى الكون .. ولو أعطاه علما بدون حضارة لأحس الإنسان تفاهة قيمة العلم .. ولكن الاثنين يكمل بعضهما بعضا ..

والإسلام قبل كل شىء هو سلوك .. والإنسان المسلم يجب أن يسلك سلوك الإسلام .. ولكن القليل هم الذين يفعلون ذلك .. ولو أنهم فعلوه لأحسوا عظمة هذا الدين وما يقدمه من سلوك طيب ومنهج كريم .

شيئان فى الكون

ان فى هذا الكون شيئين : شيئا يفعل لك .. وشيئا ينفعل بك .. فالشىء الذى يفعل لك يستوى فيه الناس جميعا .. كافر ومسلم .. فالشمس مثلا تفعل لك .. فهى تشرق كل صباح ، ولا تخص بنورها كافرا أو مسلما .. أو شاكراً الله وجاحدا لنعمته .. كلهم سواء .. عطاء الشمس للجميع بلا تفرقة .. والهواء مثلا تتنفسه كل الكائنات الحية

بدون أى تفرقة بين جاحد لنعمة الله وشاكر لها .. والماء يشرب منه كل كائن حى وبصرف النظر عن دينه وعقيدته وإيمانه بالله وكفره .. هذه الأشياء تفعل كثيراً .. الشمس تعطينا النور والطاقة وأسباب الحياة إلى آخر ذلك .. والهواء يعطينا أسباب الاستمرار فى الحياة .. والماء يعطينا الحياة نفسها .

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾

« سورة الأنبياء ـ الآية ٣٠ »

كل هذه الأشياء تفعل لك .. وهى تفعل بلا تمييز ، لأنها عطاء من رب العالمين .. فهى عطاء ربوبية .. ولقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يمنح عطاء ربوبيته للجميع .. لأنه رب الجميع .. رب العالمين .. ومادام هو الرب الذى استدعاك للوجود .. وجاء بك إلى هذه الحياة ، فهو يكفل لك بنعمة أسباب الاستمرار فى الحياة .

نأتى بعد ذلك إلى الأشياء التى تنفعل بك .. وارتقاء الإنسان فى الكون يتم فيما ينفعل به .. لا فيما ينفعل له .. وما ينفعل بك أن فعلت ينفعل .. فإذا حرثت الأرض حرثا جيدا ، ثم وضعت فيها البذرة .. ثم واظبت على رعايتها تعطيك ثمراً جيدا ، ومحصولا وفيرا .. وان بحثت فى باطن الأرض وجدت البترول والمعادن تعطيها لك الأرض .. لأنك فعلت فهى تنفعل بك .. وفى هذا لابد أن تنتبه إلى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ ﴾

(سورة طـه)

.. ذلك أن هذه الآية قد نزلت منذ أربعة عشر قرنا .. ولم يكن أحد فى ذلك يعرف ما تحت الثرى سوى آبار المياه التى يحفرها الناس .. فأخذت على هذا المعنى .. ثم تقدم العلم ليكتشف لنا أن فى باطن الأرض كنوزاً تزيد على ما فوق سطح الأرض .. فتنبهنا إلى قوله تعالى :

﴿ وما تحت الثرى ﴾ .

وعرفنا أن الله سبحانه وتعالى قد أنبأنا فى قرآنه الكريم منذ أربعة عشر قرنا أن هناك كنوزاً فى باطن الأرض .. ولو تنبهنا إلى هذه الآية لبحثنا عن هذه الكنوز .. ولكن وقت أن نزل القرآن لم يكن قد جاء موعد ميلاد ما تحت الثرى ليخدم الإنسان فى حياته .. ويؤدى دِوره للحضارة الإنسانية .. ومر الزمن ووجدنا تحت الثرى الكثير والكثير .. وربما بعد سنوات سنكتشف أكثر وأكثر .

هكذا نجد أن الارتقاء فى الحياة وفى الكون يأتى من الأشياء التى تنفعل بك .. والذين لا يقومون بأى جهد مع الأشياء التى تنفعل بالإنسان فى الأرض لا يتقدمون ، ويظلون متأخرين .. وهذا ما يحدث الخلاف فى التقدم والارتقاء بين الأمم والناس .. فتخلف أى شعب إنما يتم لأنه لا يقوم بأى جهد مع الأشياء التى تنفعل به فى الكون .. وتقدم أى دولة إنما يتم بالتعامل مع الأشياء التى تنفعل بالإنسان .. والأشياء التى تنفعل بك يجب أن تقدم لها عملا لتحصل على نتيجة .. فهذه الأشياء أيضا لا تفرق بين مسلم وكافر .. ومؤمن وملحد .. فالكافر الذى يحسن حرث أرضه وخدمتها وريها يحصل على أجود أنواع البذور ، ويجنى محصولا وفيرا .. والمؤمن الذى يهمل أرضه ولا يزرعها

لا تعطيه شيئا ، لأنه لايطبق قوانين الله فى كونه .. والملحد أو الكافر الذى يستخدمُ أحْدث الأساليبِ العلمية يجنى ثمار التقدم .. فهوَ يبحث عن المعادن فى باطن الأرض بأحدث الأساليب التى وصل إليها العلم فتظهر له هذه المعادن لأنها تنفعل به .. وبالمؤمن الذى يترك المعدن فى باطن الأرض ولا يبحث عنه ، لا يخرج المعدن له .

ولقد جعل الله ما على الأرض زينة لها .. مصداقا لقوله تعالى :

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا ﴾

« سورة الكهف ـ الآية ٧ »

ليجتذب الإنسان إلى العمل .. والزينة هى ما يخلع على ذاتيات الأشياء ليجعلها أكثر جاذبية .. فالمرأة مثلا تتزين لتصبح أكثر جاذبية للرجل .. وزينة الأرض هى أن تصبح أكثر جاذبية للإنسان ليعمل .. فالإنسان حين يرى حديقة جميلة ، أو عمارة فخمة يتمنى أن يزرع أو يبنى مثلها .. فتكون هذه الزينة حافزا للإنسان على أن يعمل .. فكأن الله جعل ما على الأرض زينة لها ليجذبنى إليها .

ويقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾

« سورة هود ـ الآية ٦١ »

معنى استعمركم ، أى طلب منكم عمارتها .. وذلك لا يأتى إلا بأمرين : أن تبقى الصالح على صلاحه لا تفسده .. وأن تصلح الفاسد وتزيد إصلاحه .. وزينة الله على الأرض من أثرين .. آثار خلق

الله .. وهى الطبيعة التى وهبها الله لنا دون أن يكون لنا جهد فيها .. وآثار ما فعله الإنسان بما علمه الله له ليزين به الأرض .

حتمية الحـل الإســلامى

هنا نأتى إلى حتمية الحل الإسلامى .. وهذا يظهر فى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ومعنى ذلك أن الله أعطى لذى القرنين أسباب القوة والحكم فى الأرض .. ولكنه لم يقتصر على ما أوتى .. لم يقف على ما فعل له .. بل اتبع سببا .. أى أخذ بالأسباب فيما ينفعل به .. ولقد أورد الله هذه الآية الكريمة ليرينا الأسلوب الصحيح فى مواجهة الحياة .. ذلك أن الإنسان يجب ألا يكتفى فيما ينفعل له ولا يفعل شيئا .. بل يجب أن يأخذ هذا العطاء ويعمل من أجل أن يضيف إليه .. وأن يتفاعل مع العناصر التى خلقها الله لتنفعل بعمل الإنسان فى الأرض ، وذلك مصداقا للحديث الشريف :

(لاخير فيمن لا يضيف)

والإضافة بمعناها العام .. أنك أنت إن عملت للكون ، يكون فى خدمتك ليعطيك الخير الكثير .. فلا بد أن تعطى عطاء الكون ،

وإلا أصبحت الحياة جامدة وغير متحركة ولا متطورة .. ويتوقف تطور البشرية ونموها .. أى أن الله سبحانه وتعالى يطلب من الإنسان أن يتفاعل مع بيئته ومع الكون .. وينهانا عن أن نقف أمام قطعة من الأرض ولا نفعل شيئا .. بل لابد للإنسان أن يعرف ويدرس كيف يحرث هذه الأرض ، وما هى النباتات الصالحة لها ليحصل على أحسن النتائج .

ومن هنا نصل إلى أن العالم لكى يتقدم ويعيش فى سلام وأمان .. لابد أن يتبع القوانين التى وضعها الله سبحانه وتعالى فى هذا الكون .. وهذه القوانين متكاملة . بمعنى أنك لا تستطيع أن تأخذ من هذه القوانين ما يعجبك .. وتترك منها مالا يعجبك .. فأنت فى هذه الحياة لابد ان تتعامل مع أسباب الأرض التى تنفعل بك ، لأن فيها الرقى فى الحياة .. وهذه توفر لك التقدم .. وتوفر لك خيرات الأرض .. وتوفر لك الاكتشافات العلمية التى تعطيك الرفاهية .. وأن تتعامل مع منهج الله فى الأرض ، وهذا يوفر لك الحياة الآمنة المطمئنة .. ويوفر لك الأمن والأمان .. ويعالج داءات المجتمع التى هى آفة البشرية كلها .. فلا تحسب أن الغنى والمال وحده يستطيع أن يعطيك الاتزان فى الحياة .. وإذا كنت فى شك من ذلك ، فابحث عن الشواهد .. ستجد أن أعلى نسبة للانتحار والجنون موجودة فى الدول المتقدمة ماديا ، تلك التى تحسب أنت أن شعوبها أكثر الشعوب سعادة فى الأرض .. فالسويد والولايات المتحدة مثلا فيهما أعلى نسبة من الدخل للفرد .. وفيهما أيضا أعلى نسبة من الجنون والانتحار .. ذلك لأن الحياة هناك فقدت أتزانها .. أخذت عنصر التفاعل مع مواد الأرض فتقدمت .. وتركت عنصر الميزان الذى وضعه الله لتأمين الحياة فى الأرض ،

فاختلت الحياة فيها .. ولم تعد هى القادرة على تكوين المجتمع الآمن المطمئن الذى وضع الله قوانينه للحياة الدنيا .

ثم بعد ذلك بعدت هذه الدول عن منهج العبادة الذى هو الأساس الذى يعطى للنفس البشرية مقوماتها الروحية .. فالإنسان إذا آمن بالآخرة وعمل لها ملأت نفسه السكينة .. وأحس أن هناك حسابا فحاسب نفسه قبل أن يحاسبه الله .. فلا يقدم على مال حرام ولا يخون الأمانة .. ويعمل فى سبيل الرزق وهو يعلم أن رزقه سيأتيه .. والعمل الذى يقدمه الإنسان فى سبيل رزقه هو نوع من العبادة ، لأننا نطيع قوانين الله فى الأرض .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم حين وجد رجلا معتكفا فى المسجد يصلى ليل نهار .. سأل من يكفله ؟ .. فقيل يا رسول الله يكفله إخوته .. فقال صلى الله عليه وسلم : كلهم أعبد منه .. ورسول الله يقول :

﴿ إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه ﴾

.. ويقول :

﴿ من استحل الأجر حاسبه الله عن العمل ﴾

وهكذا نرى أن العمل نوع من العبادة .. أمر الله به عباده ليرتقوا فى الأرض .. وأنه طلب أن يأخذوا بالأسباب حتى يعطيهم العطاء فى الدنيا ، والعطاء فى الآخرة .

وبهذا نصل إلى ختام الفصل الأول .. هو أن الله سبحانه وتعالى قد رسم الحياة الطيبة الآمنة لعباده ، وحددها لهم .. وأن هؤلاء العباد بدلا

من أن يأخذوا هذه الأسس ويطبقوها تطبيقا عمليا وسلوكيا .. ابتعدوا عنها إلى قوانين البشر التى أساسها عدم العدل ، وهو النفس .. فعم الشقاء فى الكون .. ومهما طال الزمن فإن البشر سيعودون إلى قوانين الله .. ولكنهم سيعودون إليها مضطرين بعد أن تطحنهم المشكلات والآلام .. سيعودون إليها لأنها الطريق الوحيد لتخليص الإنسانية من الشقاء الذى صنعه البشر لأنفسهم .. وأن الله سبحانه وتعالى برحمته قد شاء أن يجنب عباده هذا الشقاء .. فنزل عليهم من السماء كتابا يهديهم إلى الطريق السوى .. ولكنهم بغرورهم البشرى أعرضوا عنه ، واختاروا الطريق الذى وسوس لهم به الشيطان .

على أن الله سبحانه وتعالى قبل أن ينزل آدم إلى الأرض ليباشر مهمته عليها قد أدخله التجربة .. عله يستفيد ويعرف أين الحق وأين الخطأ .. وبين له بتجربة عملية ما هو الطيب ، وما هو الخبيث حتى يتجنب الخطأ فى الدنيا ، ويعرف أن الشيطان عدو له .. ولكن الإنسان بما أعطاه الله من اختيار .. ابتعد عن الطيب ، واختار الخبيث .. وهذا هو موضوع الفصل القادم .

الفصل الثاني

وخلق الله الانسان

وخلق الله الانسان

ولنبدأ من البداية .. لنعرف ما هى مهمة الإنسان فى الأرض .. ونعرف كيف حدد الله له هذه المهمة .. وماذا فعل الإنسان بتكليف من الله .. وما هو الحل لمشاكل هذا العالم ؟

خلق الإنسان هو غيب عنا .. فلم يشهد أحد منا كيف خلق .. حتى يستطيع أن يقول ان الإنسان خلق هكذا .. أو حدث له كذا .. وكذا .. أو يفتى فى كيفية الخلق .. بل ان خلق السموات والأرض هو غيب عنا .. فلم نشهد خلقها حتى نصل إلى حسم فى هذه النقطة بالذات .. نقول ان كيفية الخلق فى كل شىء هى غيب عنا .. وإنها علم اختص به الله سبحانه وتعالى ذاته الكريمة .. لا يعرف أحد عنه شيئا .. وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ومن هنا فإن هذا الموضوع محسوم .. وما دام الخلق غيبا عنا لم يشهده أحد .. فلابد أن نأخذ العلم منه عن الخالق سبحانه وتعالى .. فإذا روى الله لنا كيف خلق السموات والأرض وكيف خلق الإنسان ؟ فكلام الله هو المصدر الوحيد للعلم فى هذا الموضوع .. وكل كلام بشرى يدور حول ذلك .. هو كلام مرفوض لا يستحق المناقشة .. لأنه كلام ممن لم يخلق .. ولم يشهد الخلق .. ولم يشهد خلق نفسه .

وقبل أن نبدأ الحديث لابد أن نتنبه إلى عنصرين أساسيين .. هما

وخلق الله الانسان

من تمام عدل الله سبحانه وتعالى وقدراته .. العنصر الأول : إن الله أعد الأرض للإنسان ليستطيع الحياة عليها .. والعنصر الثانى أن الإنسان قبل أن ينزل إلى الأرض أعطاه الله سبحانه وتعالى تجربة عملية مر بها .. وكانت هذه التجربة فى وضوحها كافية لترى الإنسان ما هو منهج الحياة ، وماذا سيلاقى ، وكيف يواجه ما سيلاقيه .

هذان هما العنصران الأساسيات فى إعداد الإنسان للحياة على الأرض .. عطاء الله سبحانه وتعالى يوفر للإنسان مقومات حياته .. وتجربة تعطيه مفهوم الحياة .. وتبين له الحق والباطل .. وتريه رؤية العين ماذا يفعل الزيف وماذا تفعل الحقيقة .

وكان العنصر الأساسى الأول هو أنه ما دام الله سبحانه وتعالى هو الذى استدعى الإنسان للوجود فلابد أن يوفر له مقومات حياته الأساسية .. ومن هذا المنطلق .. خلق الله سبحانه وتعالى الكون بتمام قدراته وقبل أن يخلق الإنسان .. فخلق الشمس والقمر والنجوم .. وخلق الأرض والماء والهواء .. وخلق النبات والحيوان .. كل هذا خلقه الله ليكون مسخرا لخدمة الإنسان فى الأرض . فخلق الله أجناس الوجود بعضها تخدم بعضا .. وكلها تخدم الإنسان .

فالجماد خلقه الله ليخدم أجناس الوجود كلها ، وهى النبات والحيوان والإنسان .. فالجماد هو فى خدمة الكون كله .. ثم يأتى بعد ذلك النبات ، وهو يخدم الحيوان والإنسان .. فيعطيهما مقومات الحياة من الطعام وغيره .. ثم خلق الحيوان الذى يتغذى على النبات ، فجعل الله

الجماد والنبات فى خدمة الحيوان .. ثم خلق الإنسان الذى جعل كل ما فى هذا الكون من جماد ونبات وحيوان مسخرا له .

وقد تم هذا الخلق بكمال قدرات الله سبحانه وتعالى .. وكل ما خلقه الله فى الكون .. لم يستعن فيه بأحد .. فملك الله هو من خلق الله بكمال قدراته .. ولذلك فلو آمن من فى الأرض جميعا ما زادوا فى ملك الله شيئا .. ولو كفروا جميعا ما نقصوا من ملك الله شيئا .

وهكذا شاء عدل الله أن يعطى للإنسان كل مقومات حياته قبل أن يخلقه ليمارس مهمته فى الأرض .. ولكن بعض الناس يقول : إن مقومات الحياة قد تغيرت .. وان العلم والحضارة قد أعطيا للإنسان من مقومات الحياة ما لم يكن موجودا عند بدء الخلق وبدء الخليقة .. نقول : إن هذا غير صحيح .. فالحضارة لم تخلق مقومات الحياة .. ولكنها وضعت فى حياة البشر نوعا من الرفاهية .. وليس أكثر من ذلك .. وإنما مقومات الحياة هى من خلق الله سبحانه وتعالى . فلا يمكن أن يدعى العلم أنه خلق الماء .. ولكنه يمكن أن يقال إن العلم قد أضاف الرفاهية إلى استخدام الماء .. فبدلا من أن كنت تضطر لأن تذهب إلى البئر أو إلى النهر لتشرب .. جاء العلم لكى يصل الماء إلى مكانك بحيث تستطيع أن تحصل عليه فى الحجرة أو الشقة التى تعيش فيها بواسطة المواسير التى تحمل الماء إليك .. وأضاف العلم إلى ذلك أنه يستطيع أن يعطيك الماء مثلجا فى الصيف ، وساخنا فى الشتاء بعمليات ميكانيكية .. ولكن هل خلق العلم لك الماء ؟ .. الجواب طبعا لا .

ونمضى فى التساؤل .. هل خلق العلم الهواء ؟ .. الجواب طبعا لا ..

ولكنه اخترع أجهزة لتنقى الهواء من شوائب المصانع .. وأجهزة تكييف تجعل الجو باردا أو حارا حسب رغبتك .

إذن هو أضاف الرفاهية ولكنه لم يخلق .. هل خلق العلم الأرض والنبات مما يأكله الناس ؟ .. الجواب طبعا لا .. فلا أحد يستطيع أن يدعى أنه خلق الأرض ، أو خلق حبة واحدة من النبات .. ولكن الذى حدث أن العلم قام بنوع من التهجين لتصبح الثمرة أكثر حلاوة ، أو لتعطى البذرة محصولا أوفر بجهد أقل .. أى أنه أضاف الرفاهية ولكنه لم يخلق شيئا .

وهكذا فى الكون كله .. إذا نظرنا للعلم فإنه مجرد إضافة للرفاهية أراد الله سبحانه وتعالى أن ييسرها لخلقه .. فبدلا من أن أذهب مثلا لمشاهدة مباراة فى كرة القدم .. أصبحت أشاهد هذه المباراة وأنا جالس فى منزلى عن طريق التليفزيون .. فالإنسان استخدم الغلاف أو خصائص الغلاف الجوى الذى خلقه الله فى أن يوفر الرفاهية لتنتقل الصورة من مكان إلى مكان فى ثوان معدودة .. ولكن العلم لم يخلق العينين اللتين أرى بهما .. أو الغلاف الجوى الذى ينقل الصورة وهما الأساس لما حدث .

وكان الإنسان يسافر ماشيا .. فهداه الله إلى استخدام الأنهار والسيارات والطائرات .. كل هذه لم تعط الإنسان الحركة .. ولكنها يسرتها له .. فالإنسان مازال قادرا على أن يستغنى عن كل هذا . ويسافر على قدميه أو على دابة من مكان إلى آخر .. كل ما حدث هو أن المشقة رفعت .

وخلق الله الانسان

وأتى العلم بالرفاهية إلى حياة البشر .. ولكن ضروريات الحياة .. خلقها الله ولم يخلقها العلم .

الله سبحانه وتعالى خلق الأرض وجعلها لحياة الإنسان .. فجعل فيها مسطحات هائلة بالماء لتمد الإنسان بالمطر والماء العذب اللازم للحياة .. وأودع فى الأرض أرزاقها ، فجعل مخازن الطعام فى الجبال التى فيها الطمى الخصب . ينزل المطر ، ويجرفه إلى الأنهار ليغذى الأرض فتصبح صالحة للإنبات .. فيخرج الزرع مختلفا ألوانه ليأكل منه الناس .. وقدر الله فى الأرض رزقها إلى يوم القيامة .

وهنا تقف لتتساءل .. ماذا عن المجاعات التى تحدث فى العالم .. مع أن الله كفل الرزق والكفاية للجميع بعطاء ربوبيته .. نقول إن ذلك من صنع الإنسان .. فهو الذى كفر بنعمة الله وبددها .. فالنبات الذى تخرجه الأرض يكفى الناس جميعا ليأكلوا بحيث لا يوجد جائع واحد .. ولكن ما الذى يحدث ؟ البشر بدأوا يحجبون رزق الأرض عن الإنسان .. فنرى دولة كالبرازيل تلقى الملايين من البيض فى البحر حتى لا ينخفض سعره فتحرم ملايين البشر من رزق يسره الله لهم لتحقق جشعا إنسانيا .. ونرى دولا أخرى تحرق البن حتى تحتفظ بسعره مرتفعا فى العالم .. ونرى دولة كأمريكا مثلا تدفع للزراع مئات الملايين من الدولارات حتى يتركوا الأرض بدون زراعة بالنسبة للقمح وعدد آخر من المحصولات حتى يحتفظوا بسعره العالمى كما يقولون .

وهكذا نرى ان الأرض تنتج ما يكفى البشر أو يزيد .. ولكن جشع الإنسان هو الذى يحجب هذا الطعام عن أخيه الإنسان فتحدث

المجاعات .. بل وأكثر من ذلك أن عددا من الدول التى تملك أراضى صالحة للزراعة مشغولة بتوافه الدنيا والمنازعات والحروب عن أن تجعل الأرض تنفعل بها وتعطيها الثمار .

ومن معجزات الله فى خلقه أنه كلما زاد تعداد العالم .. كشف الله من العلم للإنسان ما يمكنه من أن يزيد إنتاج الأرض .. فكل الاكتشافات العلمية الجديدة التى يسرها الله لخلقه بالنسبة للزراعة .. لو تتبعناها لوجدنا أنها تزيد من إنتاج الأرض كلما زاد عدد سكانها ..

وهكذا تمضى الحياة بدقة إلهية متناهية لتخلق فى الأرض رزقا جديدا لكل فم جديد يولد .. ولو وزع إنتاج الأرض بالعدل على البشر كلهم لما وجد جائع .. إذن فالمجاعات هى من ظلم الإنسان وإفساده فى الأرض .. بل إننى أزيد على ذلك هو أنه كلما قدر الله عدم نزول المطر على جزء من الأرض .. زاد الإنتاج فى الأجزاء الأخرى بحيث لو نقلنا هذه الزيادة لعالجت الذى وجد .. وهذا من عدل الله .. فلا يمكن أن يحدث جفاف فى العالم كله أو فى أجزاء كثيرة فى وقت واحد .. بل الجفاف يحدث فى جزء صغير يكون باقى الإنتاج قادرا على أن يسده ويعالجه .

خلق الله الأرض ، وقدر فيها أقواتها إلى يوم القيامة .. وقدر فيها رزقها .. وخلق الشمس ولها مهامها فى الحياة .. سواء فى الضوء الذى تعطيه فى النهار ، أو فى البخر الذى تسقط به الأمطار .. أو فى إنماء الزرع ، أو فى غير ذلك وخلق الكون كله فى نظام بديع متكامل لخدمة

وخلق الله الانسان

الإنسان وإعطائه مقومات الحياة .. وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ
رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا
أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ
دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾
فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا
السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة فصلت)

وهكذا تم إعداد الأرض ليعيش فيها الإنسان ووضعت له فيها كل مقومات حياته .. وضعت له بقدرة الله .. مسخرة له من الله سبحانه وتعالى .. فوجد الماء ووجد الطعام ووجد الحيوان .. وكان كل ذلك في خدمة الإنسان ومعدا له قبل أن يخلق الإنسان ويسكن الأرض . وهو معد إعداداً من لدن حكيم خبير .. وضع للأرض والسموات نظاما دقيقا لا يختل لحظة مصداقا لقوله تعالى :

﴿ الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾
الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ
رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

وهكذا نرى أن كل شيء فى الكون خلق بحساب دقيق .. الشمس لا تتأخر ثانية عن موعد شروقها .. والأرض لا تتوقف برهة عن الدوران .. والنجوم والجبال والأنهار كلها تمت بصنع دقيق لتلائم مهمتها .. وبقيت ملايين السنين وستبقى إلى قيام الساعة .. لا يحدث على عظم مهمتها خلل ولو جزءا من الثانية لأنها من صنع الله العليم القدير ، وليست من صنع الإنسان الذى تفسد صنعته بعد سنوات قليلة وتحتاج إلى إصلاح ، وإصلاح .

نأتى بعد ذلك إلى خلق الإنسان .. أعد الله الأرض ووضع فيها كل مقومات الحياة وخلق الإنسان ليؤدى مهمته فى الأرض .. ولنبدأ قصة الخلق :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾
فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

وقوله تعـالى :

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ
مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

(سورة ص)

وقوله سبحانه وتعالى :

وخلق الله الانسان

﴿ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾

(سورة ، ص)

الله سبحانه وتعالى أخبرنا أنه خلق الإنسان من طين .. ومن صلصال .. ومن حمأ مسنون .. ونحن نأخذ كيفية الخلق عما أنبأنا به الله سبحانه وتعالى لأنه هو الذى خلق .. وكما بينا لقد قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة الكهف)

فإذا جاء بشر يجادل فى خلق السموات والأرض .. ويجادل فى خلق الإنسان .. ويقول إن السماء والأرض كان أصلهما سحابة أو ذرات خامدة .. أو أن الإنسان نشأ بنظرية التطور والارتقاء ، كما ادعى داروين أو غيره ممن جادلوا فى خلق السموات والأرض وخلق الإنسان .. نقول لهم نحن نعرفكم . أنتم المضلون الذين أنبأنا الله عنهم فى القرآن الكريم .. الذين يأتون ليجادلوا فى خلق السموات والأرض والإنسان .. لقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى بمجيئكم قبل أن تأتوا .. وحذرنا من أنكم ستأتون للإضلال عن سبيل الله ومجيئكم هو تثبيت للإيمان فى قلوبنا .. لأنكم لو لم تأتوا .. ولو لم تحاولوا الإضلال عن منهج الله بنظريات كاذبة .. لقلنا إن القرآن أنبأنا أن هناك مضلين سيأتون ليجادلوا فى خلق السموات والأرض ، وفى خلق الإنسان فأين

هم ؟ .. ولكن كونكم أتيتم وجئتم بهذه النظريات الكاذبة التى تحاولون بها نشر الكفر والإلحاد .. فإنكم بذلك تثبتون قضية الإيمان .. فالله لم يشهدكم عملية الخلق .. ولم يطلب منكم العون فى خلق الكون والإنسان .. حتى تدعوا ما تدعونه .. والله قد اتخذ منكم ـ وأنتم تحاولون نشر الكفر والإلحاد ـ دليلا على صدق الإيمان ، وصدق القرآن .. والله فى كونه يسخر المؤمنين والكفار لخدمة قضية الإيمان .

نأتى بعد ذلك إلى الخلق كما أنبأنا به الله سبحانه وتعالى . لقد قال الله انه خلق الإنسان من طين ومن صلصال ومن حمأ مسنون ثم نفخ فيه من روحه .. ونحن لم نشهد الخلق .. ولكن رحمة الله سبحانه وتعالى أن يجعل لكل قضية غيبية عنا قضية مادية مشهودة تقرب المعنى من عقولنا .. ونحن لم نشهد الخلق ، وهو بداية الحياة .. ولكننا نشهد الموت وهو نقض للحياة .. ونقض الشىء يكون عكس بنائه .

إننا بدأت بناء عمارة فأنت تبدأ بالدور الأول .. فإذا أردت هدمها .. فإنك تبدأ بما انتهيت إليه .. فتبدأ بإزالة الدور الأخير .. ثم الذى تحته .. ثم الذى تحته .. وأنت إذا ذهبت من القاهرة إلى الاسكندرية فأول ما تبدأ به هو خطوة تبعدك عن القاهرة وتقربك من الاسكندرية .. فإذا أردت أن تعود فإنك تبدأ عند النقطة التى انتهيت إليها .. وهكذا طبيعة الأشياء .

آخر ما دخل فى الإنسان حسب قول الله سبحانه وتعالى هو الروح .. ولذلك عند نقض الحياة فإن أول ما يخرج منك هو آخر ما دخل فيك وهو

الروح .. ثم بعد ذلك يتصلب الجسد فيصير كالحما المسنون ، أى الطين الذى فيه صلابة الفخار .. ثم يصير طريا كالصلصال .. ثم يصبح طينا يذهب الماء فيه إلى الأرض .. ثم تحلل عناصر الطين والتراب .. ويعود الإنسان إلى العناصر الأولى التى خلق منها .. وهكذا كان الموت دليلا على الخلق .. وهو دليل مشهود لنا ـ يعطينا بالحس المادى الذى نراه ـ طريقة هدم الحياة التى هى عكس بنائها .

نأتى بعد ذلك إلى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى ﴾

وحينما نأتى إلى أى صفة من صفات الله ، أو فعل من أفعاله .. فإننا لابد أن نرفع ذلك إلى قدرة الله سبحانه وتعالى لأن الفعل يتناسب دائما مع القدرة .. فلله يد .. ولكل منا يد .. ولكن هل يد الله كأيدينا ؟ .. طبعا لا .. حين نصل إلى ذلك لابد أن نرفع الأمر إلى الله سبحانه ، ليس كمثله شىء .. ولذلك فإن هذا يقع فى يد القدرة التى لا يدركها العقل والتى لابد أن نقف أمامها دون أن نحاول أن نضيف أكثر فالله سبحانه ليس كمثله شىء .

ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾

(سورة الحجر ـ ٢٩)

والروح هى أمر من أمور الله .. وكل الأبحاث التى تجرى عن الروح هى مجرد عبث .. ذلك أن الروح لا يمكن أن تضعها فى معمل .. ولا أن تجرى عليها التجارب حتى تصل إلى الحقيقة .. والبحث عن الروح

يشغل الإنسان منذ بداية الحياة .. ذلك أنها سر الحياة الذى عجز البشر عن الوصول إليه عبر السنين .. ورغم ان الروح لا تدخل فى طاقة البحث العلمى ، وكل ما يقال عنها ظن وتخمين يفتقر إلى الدليل .. فإن الإنسان مازال يحاول أن يعرف شيئا .

لقد قام عالم سويسرى فى الفترة الأخيرة بتجربة وضع فيها الإنسان عندما يحتضر على ميزان .. وجد أنه فى لحظة الوفاة يفقد جزءا يسيرا من وزنه . فادعى أن هذا الوزن هو وزن الروح .. والبعض الآخر أنكر أن لها وزنا .. والكافرون ينكرون وجود الروح ويسمونها الزمن أو الطبيعة .

وحيرة البشر كلها .. سجلها القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا فى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وهناك الروح .. وهناك النفس .. فالنفس هى التقاء الروح بالمادة أو امتزاج الروح بالمادة .. هذه هى النفس .. ولذلك فإن التكليف من الله سبحانه وتعالى للنفس البشرية ، أو لفترة الحياة التى تلتقى فيها الروح والجسد .. فالله لا يكلف الروح وحدها شيئا بعد أن تخرج من الجسد .. ولا قبل أن تدخل فيه ، والله لا يكلف الجسد شيئا إذا خرجت منه الروح .. ولكن التكليف حين تلتقى الروح بالمادة .. فهنا

تنشأ الحياة الأرضية .. أو تنشأ النفس التى هى تمر بمرحلة الاختبار فى الالتزام بمنهج الله فى الأرض .. ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾

(سورة الشمس)

إذن الله سبحانه وتعالى بين طريق الإيمان وطريق الخطأ والمعصية للنفس البشرية .. أى فى الفترة التى تلتقى فيها الروح بالجسد ، أى أن الله بين منهجه للنفس فقال افعل .. ولا تفعل .. وقال هذا خطأ .. وهذا صواب .. وبين طريق الجنة للنفس البشرية .. والتكليف الالهى هو فى فترة الحياة الدنيا وحدها .. مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٠ ﴾

(سورة يس)

وإذا أردنا أن نفهم كلمة الروح فإنها ذلك السر الالهى الذى يهب الحياة للمادة .. أو الذى تحيا به المادة .. أو بشكل آخر هو إرادة الله لها أن تحيا .. فإذا سلب الله هذه الإرادة ذهبت الحياة بشكلها الدنيوى وانتهت واختفت .. ولذلك يصور رسول الله ﷺ الحياة الدنيا كأنها فترة من الوقت فى رحلة الحياة الكبرى .. يقضيها المسافر تحت ظل شجرة ثم يرحل .. فيقول رسول الله ﷺ :

« مالى وللدنيا ؟ ما أنا فى الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ، ثم راح وتركها »

ويقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

وقال سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

ولابد هنا من الإشارة إلى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ ﴾

فكأنما الحياة عند الله سبحانه وتعالى الحياة الحقيقية هى فى الآخرة .. ذلك أنها حياة الخلود التى تساوى أن تسمى حياة بمقوماتها التى يريدها الله سبحانه وتعالى للإنسان .. ولذلك فإن الله يذكرنا أن اتباع منهجه فى الدنيا هو الذى يعطينا الحياة المنعمة الطيبة التى أعدها الله للمؤمنين فى الآخرة .. حيث أعد لهم مالا عين رأت ..

ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .. وان الحياة الدنيا إنما هى فترة قصيرة لا تساوى شيئا .. وإنما هى فترة اختبار للنفس البشرية لتقودها إلى الحياة الطيبة الخالدة .. ويؤكد هذا المعنى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾

أى أن الله يريد أن يلفتنا إلى أن الحياة التى يعمل الإنسان لها لو أوتى العلم والذكاء هى الحياة الآخرة .. ولذلك فهو يحذرنا من أن تفتننا الحياة الدنيا التى هى لعب ولهو ، والتى هى متاع الغرور .. عن الحياة الآخرة التى هى حياة الخلود والنعيم ، والتى لابد لكل إنسان عاقل أن يعمل من أجلها .. وفى ذلك يقول رسول الله ﷺ (لو كانت الحياة الدنيا تساوى عند الله جناح بعوضة ما سقى فيها كافرا شربة ماء) .

إذن فالنفس البشرية هى التقاء الروح بالجسد لتهب له الحياة .

ونعود للآية الكريمة :

﴿ ويسألونك عن الروح ﴾

.. وحينما سئل رسول الله ﷺ عن الروح .. كان السائلون يريدون أن يعرفوا ما هى الروح .. ومم تتكون ، وكيف تهب الحياة للجسد ، ثم تذهبها عنه ؟ .. وهنا رد الله سبحانه وتعالى :

﴿ قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾

أى أن الروح سر من أسرار الله سيظل غيبا عنا إلى يوم القيامة .. الله سبحانه وتعالى يقول : ان علمكم الأرضى الذى تظنون أنه كثير .. وهو فى الحقيقة أقل القليل .. علمكم هذا لن يصل لكم إلى سر الروح .. أنتم تسألون ما هى الروح .. وأنا أقول لكم ان علم البشرية كلها لن يصل إليها .. بل لن يصل إلى أسرارها .. وأقول هذا يقينا .. وهذا تحد من إعجاز القرآن الكريم .. فمازالت البشرية بكل علمها وعلمائها عاجزة عن أن تقترب من الروح .. أو تكتشف سرا واحدا من أسرارها

بل ان تحدى الله سبحانه وتعالى قد جعل هذه الروح ، وهى تعيش فى جسد بشرى .. يعجز صاحب هذا الجسد عن أن يعلم شيئا عنها .. كيف جاءت وكيف خرجت ؟ .. بل انك تسأل أعلم علماء الأرض الذين يجادلون فى الله بغير علم ولا استحياء ويأخذون الرؤية المادية على أساس أنها يقين العلم كله .. أولئك الذين يحاولون ستر وجود الله ويعلنون الكفر والإلحاد ويطالبون أن يروا الله .. نقول لهم : إن الله برحمته قد أظهر لنا فى هذه الحياة الدنيا جهلكم وأنتم تدعون العلم .. فالروح فى أجسادكم .. معكم فى رحلتكم من المهد إلى اللحد .. أو من الميلاد إلى القبر .. وأنا أسألكم يا من تدعون العلم .. أين هى الروح التى فى أجسادكم .. هل هى فى القلب الذى ينبض أو فى العقل الذى يفكر .. أو فى القدم التى تمشى .. أو فى اليد التى تبطش .. أو فى اللسان الذى يتكلم .. أو فى الرئة التى تتنفس .. أين هى ؟ .. وأين مكانها ؟ ..

والجوانب طبعا أن أحدا لا يستطيع أن يحدد مكانها .. فنقول لهم :

ما هو شكلها فيقفون صامتين بلا جواب .. فنقول لهم هل هى موجودة ؟ فيقولون نعم موجودة لانها تعطينا الحياة .. فنقول لهم إذا كانت الروح وهى موجودة وجودا يقينا فى كل كائن حى قد عجزتم عن تحديد مكانها أو شكلها . أو أن تروها رؤية العين .. ومع ذلك فهى موجودة وجودا يقينا .. إذا كان ذلك لمخلوق من مخلوقات الله سبحانه وتعالى .. لا تستطيعون الإحاطة به .. فكيف تريدون رؤية الله وتقولون لن نؤمن حتى نرى الله جهرة .. وأنتم عاجزون عن أن تروا الروح وهى مخلوق من مخلوقات الله فى أجسادكم .. الا يصيبكم الخزى وأنتم تجاهرون بأن عدم رؤية الله إنكار لوجود الله جل جلاله .. الا تكفى هذه التجربة لتبين لكم أنكم تفترون على الله .. وكان من الأجدر بكم أن تسجدوا لقدرة الله سبحانه وتعالى الذى وضع فيكم هذا الإعجاز .. وتوقنوا بوجود الله .. وبعظيم علمه .. وتسجدوا له وتسبحوه .

ولكن لماذا أخفى الله سبحانه وتعالى علم الروح عن البشرية ؟ .. لأنه أولا دليل قدرة .. وثانيا دليل الوجود بلا رؤية .. وثالثا لأن حقيقة الروح سواء علمت بها أو لم تعلم لن تفيدك شيئًا فى حياتك الدنيا .. فالانتفاع بالروح لا يقضى ولا يقتضى العلم بها .

ولكى نقرب هذا المعنى إلى القارىء نقول : ان الله سبحانه وتعالى قد خلق أشياء كثيرة لا يقتضى الاستفادة بها علما من المستفيد .. فالكهرباء مثلا أستفيد بها ، سواء علمت أو لم أعلم .. فالأمى الذى لا يقرأ يضع يده على الجرس فيحدث رنينا ، وعلى مفتاح النور فتضىء الحجرة .. هل يعرف هذا الرجل الذى لا يقرأ ولا يكتب حقيقة

الكهرباء .. أبدا .. ولكنه ينتفع بها .

بل أنت فى حياتك ملايين الأشياء التى تنتفع بها ولا تعرف شيئا عن حقيقتها .. هل يعرف كل من يركب الطائرة نظريات الطيران .. وهل يدرى كل من يستخدم التليفون كيف تتم المكالمة .. وهل يعرف كل من يشاهد برنامجا تليفزيونيا ينقل بالقمر الصناعى .. كيف يتم الاتصال أو نقل الصوت والصورة عن طريق الأقمار الصناعية .. وهل لو جهل من يزرع الأرض أن الأرض كروية وأنها تدور حول نفسها .. هل لو جهل هذه الحقيقة ، فإنه لا يستطيع الاستفادة من الأرض فى أن تنتج له ما يريد من طعام .

وأستطيع أن أمضى بلا نهاية فى أشياء أقول عنها ينتفع بها ملايين الناس دون أن يعرفوا سرها .. لأقول ان الله سبحانه وتعالى برحمته عندما يحجب حقيقة الروح عنا فإن ذلك لا يؤثر فى انتفاعنا بهذه الروح فى رحلة الحياة .

إذن أنت تنتفع بالروح التى تعطيك الحياة والحركة وان كنت تجهل ما هى .. ولا يعنى ان الله قد حجب حقيقتها عنك أنك لا تستطيع أن تنتفع بها .. إنها فى داخلك . فى كل خلية من جسدك تهبها الحياة والحركة .

نعود إلى قول الله :

﴿ قل الروح من أمر ربى ﴾

وخلق الله الانسان

.. وماذا تعنى كلمة أمر الله .. القرآن الكريم يبين لنا ذلك .. فالله يقول :

﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة يس)

إذن أمر الله بالنسبة لنا هو إرادة الله سبحانه وتعالى لهذا الجسد أن يحيا ، هو التفسير لمعنى الأمر من الله سبحانه وتعالى أى الإيجاد بكلمة كن .. والخروج من علم القادر وهو الله سبحانه وتعالى إلى علم غير القادر وهو الإنسان بكلمة كن .. وهذا الخروج يحدث ليباشر الشىء دوره ويؤدى مهمته فى الكون .. فأمر الله سبحانه وتعالى يكون إيذانا بأن يباشر الشىء مهمته فى الكون بكلمة كن .

نأتى بعد ذلك إلى الآية الكريمة :

﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ﴿٢٨﴾
وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة القيامة)

وقوله سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ
مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾
تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

وخلق الله الانسان

والله سبحانه وتعالى يتحدث فى هذه الآيات عن الروح وهى تغادر الجسد .. وهى تخرج منه .. انه يتحدث عن لحظة الموت .. لحظة الفراق بين الجسد والروح .. والله سبحانه وتعالى عندما يتحدث هنا عن الروح يتحدث عن شىء له دخول وله خروج .. أو عنصر تام .. فإذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يهب للجسد الحياة وحدث ذلك بكلمة كن .. دخلت الروح إلى الجسد لتعطيه الحياة .. وإذا أراد الله أن يسلب الحياة أخرج من الجسد تلك الروح التى تعطيه الحياة .. فإذا جاء بعض العلماء وقالوا إنهم وضعوا عددا من الذين يحتضرون فوق ميزان حساس ثم لاحظوا لحظة الوفاة أن الجسم يفقد جزءا فجائيا من وزنه .. وانهم يدللون بذلك على أن الروح لها وزن يسير .. نقول لهم ان ما تقولونه ليس علما ، ولكنه ظن فقط .. أى أنكم تظنون ذلك .. فقد يكون هذا الوزن الذى يفقد نتيجة كمية من الهواء من الجسد فجأة .. أو توقف سريان الدم .. أو نتيجة أى تفاعل مادى يحدث ساعة الوفاة .. وأن هذا لا يعنى يقينا ان الروح لها وزن .. ولذلك فإن البحث العلمى على أن الروح لها وزن أو ليس لها وزن مجرد عبث .

أن الله سبحانه وتعالى قد خلق آدم بيديه ونفخ فيه الروح .. ولقد بينا عناصر الخلق والذين يجادلون فيه بغير علم .. ثم تحدثنا عن النفس البشرية التى هى التقاء الروح بالجسد .. وعن الحياة الحقيقية التى هى فى الآخرة .

ونصل إلى أمر الله سبحانه وتعالى إلى الملائكة أن يسجدوا لآدم وهذا هو موضوع الفصل القادم .

الفصل الثالث

السجود لآدم

السجود لآدم

أراد الله سبحانه وتعالى أن يكرم آدم تكريما عظيما يليق بمهمته فى الحياة . كخليفة الله فى الأرض .. فبعد أن خلق له هذا الكون كله بشمسه وأرضه ونجومه وقمره وبحاره ليستقبله ويكون فى خدمته . أراد أن يكرمه عند بداية الخلق .. وكان أول إختبار من الله سبحانه وتعالى للملائكة بأنه جاعل فى الأرض خليفة هى قبل خلق آدم مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

وهكذا يبين الله سبحانه وتعالى أنه أخبر الملائكة بخلق آدم قبل إتمام الخلق . فقال سبحانه وتعالى للملائكة انه سيخلق بشرا من صلصال من حمإ مسنون .. ثم أصدر الله سبحانه وتعالى أمرا للملائكة أنه ساعة إتمام خلق آدم أن يسجدوا له .. هذا السجود قد يكون لعظم المهمة التى كلف الله بها آدم فى الأرض .. وقد يكون لعظم التكريم الذى جعله الله لآدم فى الآخرة .. وقد يكون تفضيلا لآدم من الله سبحانه وتعالى مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

ما هو معنى عظم المهمة التى كلف الله بها آدم فى الأرض .. هذه المهمة تتلخص فى أنه حمله الأمانة .. وتلك مهمة كبيرة وحمل ثقيل حمله الإنسان فى حياته على الأرض .. ولقد قال الله سبحانه وتعالى فى ذلك :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

ما هى الأمانة فى معناها الواسع ، وما هى الأمانة التى حملها الإنسان .. الأمانة فى معناها الواسع أن نودع شيئا لدى أى شخص من الأشخاص بشرط أن يكون هذا الإيداع ليس عليه دليل مادى أى أنه يكون بينك وبينه .. فإذا أعطيت إنسانا مبلغا وكتب لك شيكا بهذا المبلغ أو كمبيالة له فهذا ليس أمانة ولكنه دين .. فإذا لم يكن هناك دليل مادى على أنك أودعت عنده هذا المبلغ فهذا أمانة .. ولقد حدد الله سبحانه وتعالى معنى الأمانة فى القرآن الكريم بمعناها الواسع .. فقال سبحانه وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ ﴾

(سورة البقرة - الآية ٢٨٢)

وهكذا حدد الله سبحانه وتعالى أن الدين هو الذى يقوم عليه صك

مكتوب أو ورقة مكتوبة - ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إذن فالأمانة هى دين لا يقوم عليه دليل مادى مكتوب وذلك كأن آتى إلى شخص وأودع لديه مبلغا من المال وأقول هذا أمانة عندك حتى العام القادم مثلا . قد يقبل هذا الشخص الأمانة ويقول لى اعطها لى وهى فى الحفظ والصون إلى أن يأتى العام القادم فتأتى لتأخذها وتجدها كما هى .. وقد يخاف الشخص من نفسه ويقول اعفنى من هذه المهمة إن يدى ستمتد إليها ، ولن أستطيع أن أحمل هذه الأمانة ، ولذلك فأنا أرفضها .. ونوع ثالث من الناس يبدى أستعدادا وتحمسا ليتقبل الأمانة فإذا أصابه ضيق مادى أو احتاج إلى شىء امتدت يده إليها ليأخذ منها على أنه سيعيد ما أخذ قبل أن يأتى موعد رد الأمانة .. ثم يحتاج فيأخذ ويأخذ على أمل أنه سيرد .. ثم يفاجأ عند مجىء موعد الرد بأنه قد بدد الأمانة وعجز عن ردها . هذا هو معنى الأمانة عامة .. وهو معنى أوضحه الله فى القرآن الكريم فى سورة البقرة إيضاحا لا يحتمل أى نوع من التأويل ..

فإذا كان هذا هو المعنى العام لكلمة الأمانة فما هى الأمانة التى حملها الإنسان .. انها منهج الله فى الأرض ، وحرية الاختيار فى إفعل

ولا تفعل .. ذلك أن الله سبحانه وتعالى حين خلق السموات والأرض والجبال وغيرها من المخلوقات عرض عليها الأمانة ـ أى أن يأتمنها الله سبحانه وتعالى على منهجه .. ويعطيها الحرية فى أن تفعل ولا تفعل .. فإن اتبعت المنهج وفعلت كان لها ثواب عظيم .. وإن خالفت المنهج وعصيت استحقت العذاب فى النار .

عرض الله هذا على السموات والأرض والجبال وغيرها من المخلوقات .. فقالوا يارب لا نستطيع أن نحمل الأمانة .. إنا نخاف ونشفق على أنفسنا منها .. ونخشى ألا نستطيع أن نؤدى أمانة المنهج الذى تريد أن تحمله لنا .. فإن هذه المهمة تحتاج إلى جهد عظيم .. فيارب اجعلنا مقهورين غير مختارين .. مقهورين على طاعتك .. غير مختارين فى أن نعصى .. ولكن الإنس والجان قبلوا أن يحملوا الأمانة .. وقالوا يارب نحن قادرون على ذلك حملنا الأمانة ، وسنكون أمناء على المنهج .. وسنطيع ولا نعصى .

ولعظم هذه المهمة التى حملها الإنسان .. فإن الله سبحانه وتعالى يصفه بصفتين فيقول إنه كان ظلوما جهولا .. وظلوم معناها أنه كثير الظلم .. وجهول أنه عظيم الجهل .. لماذا وصف الله الإنسان فى هذه الآية بالذات بأنه ظلوم جهول .. لانه لم يقدر عاقبة ما اختاره .. فهو بهذا الاختيار قد ظلم نفسه .. فحملها مالا يقدر الضعف البشرى فى كثير من الأحيان أن يتحمله .. هذه واحدة ولأنه ـ أى الإنسان ـ يجب أن يتميز كل واحد منهم عن غيره .. فهذا يريد أن يأخذ حق هذا .. وهذا يريد أن يستبيح حرمات غيره وهكذا .. والله نهى عن ذلك .. ولكن هوى

النفس يدعو الإنسان إلى أن يأخذ ما ليس له حق فيه .. وهكذا كان الإنسان كثير الظلم .. كل واحد منا يظلم .. فهو ليس ظالما .. ولكنه ظلوم .. مضافا إلى ذلك أن الإنسان قد أخذ حق المعصية .. فمادام الله قد قال افعل .. فالإنسان قادر على ألا يفعل .. وما دام الله قال : لا تفعل .. فالإنسان قادر على أن يفعل .. وهذه المقدرة التى وهبها الله للإنسان أو أعطاها له قد ملأت نفسه بالغرور .. والغرور هو الطريق السريع إلى المعصية ، وإلى الظلم والاستبداد فى الأرض .. وهكذا من كل ناحية كان الإنسان كلما حمل الأمانة ، ظلوما لنفسه ، وظلوما لبنى جنسه .

وكان الإنسان جهولا .. أى عظيم الجهل .. لماذا ؟ .. لأنه وقد أخفى عنه الجزاء للمعصية استهان به .. فلو أن الجزاء كان حاضرا ـ أى أننا نراه أمامنا .. ما جرؤ واحد منا أن يرتكب معصية .. ولكن لأن الجزاء غيب عنا .. فإننا بجهلنا نستهين بعذاب الله .. فلو أننا أحضرنا معاصى الدنيا كلها بكل ما فيها من مال وشهوات وزينة وأعطيناها لإنسان .. ثم قلنا له هذه كلها لك .. تمتع بها كما تريد وكما تشتهى .. ولكن قبل أن تتمتع وحتى نكون عادلين نريد أن نريك النتيجة .. ثم فتحنا له بابا فرأى نار جهنم .. وقلنا له بعد أن تمضى فترة عمرك فى هذه المعاصى كلها بكل ما تمنحه من زينة وجاه وسلطان وشهوة .. سنأخذك إلى هنا .. إلى جهنم لتبقى فيها خالدا .. لو أننا قلنا له هذه الكلمات وفتحنا له أبواب جهنم ما اقترب من معصية أبدا .. ولكن لأن هذا أخفى عنه ، ظن الإنسان أنه لا علم إلا علمه ، ونسى علم الله الواسع الذى لا يحده حدود .

وهو جهول لأنه سيعبد الدنيا بقصر نظره بعد علمه يقينا بأنه سيخرج منها .. فلا يوجد إنسان إلا ويعرف يقينا أنه سيموت .. وأن أجله سيأتى ولكن لا يوجد إنسان يحسب أو يؤمن أنه قد يموت غدا .. فمهما بلغ به العمر فالأمل داخل نفسه أنه سيعيش سنوات وسنوات .. وفى ذلك يقول رسول الله ﷺ (ما رأيت يقينا أشبه بالشك من يقين الإنسان بالموت) ذلك أن الإنسان رغم علمه اليقينى أنه سيموت فإنه كان فى شك بأن هذا لن يحدث لسنوات طويلة ..

والإنسان جهول .. لأنه فى داخله فطرة الإيمان التى فطره الله عليها .. وحوله الكون الذى سخره له الله لخدمته .. يرى فيه كل يوم آيات الله عن قوى أكبر منه وتستطيع أن تدمره .. ولكنها مسخرة لخدمته وطاعته .. فالشمس تستطيع إن اقتربت من الكون أن تحرقه فى دقائق .. ولكنها لا تجرؤ إلا أن تشرق فى موعدها ، وتبقى فى مكانها تخدم الإنسان بالضوء وفى الطعام وفى تكوين السحب لإنزال المطر إلى آخره .

والبحر يستطيع أن يغرق الأرض فى لحظات محدودة .. ولكنه يبقى فى مكانه مسخرا ليحمل السفن والإنسان .. ويعطى الإنسان الطعام والحلى .. ويرى فيه الإنسان من عجائب خلق الله .. والأرض بزلزال هائل تستطيع أن تفنى البشرية .. ولكنها تستمر خادمة الإنسان خاضعة له فى مقومات حياته .. تلك القوى لم يخلقها الإنسان حتى نقول إنه سيطر عليها لانه خالقها .. ولا يستطيع أحد من البشر أن يدعى أنه خالق هذا الكون .. ولكن الله الذى قال لنا انه هو الخالق ..

ورغم أن الإنسان يرى الإعجاز فى تسخير هذا الكون له بكل القوى الهائلة الموجودة فيه .. ويعلم يقينا أن الله هو الذى خلق هذا كله .. لأن الله أخبرنا بأنه هو الذى خلق .. ولم تجرؤ أى قوة أخرى أن تدعى لنفسها الخلق .. رغم هذه الآيات الظاهرة .. فإن الإنسان بعظيم جهله يعبد حجرا .. أو يعبد حيوانا .. أو يعبد إنسانا مثله .

الله سبحانه وتعالى حين أعطانا الأمانة وحملناها .. كان لابد أن يميزنا بعقل حتى نستطيع أن نختار بين البدائل .. فالعقل مهمته الاختيار بين البدائل .. أما باقى المخلوقات التى اختارت طاعة الله جبرا فتحكمها قوانين غريزية .

ولذلك كان الحساب يقف حين يتعطل العقل عن أداء ومهمته .. فالمجنون يسقط عنه التكليف ولا يحاسب .. والطفل الذى لم يبلغ الحلم أو مبلغ الرجولة والنضج العقلى الذى يجعله يستطيع أن يفرق وأن يميز .. لا يجرى عليه القلم .. وهكذا فإن مناط التكليف هو العقل .. ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى قد حرم كل ما يعطل العقل عن عمله أو يفسده .. أو يجعله ينحرف عن مهمته .. فحرم الخمر تحريما قاطعا لأنها تفسد العقل وتعطله عن أداء مهمته فى الحياة فقال :

﴿ فلا تقربوها ﴾

فهى ليست محرمة فقط .. ولكن القرب منها بالجلوس فى مجالسها ممنوع .. وما ينطبق على الخمر ينطبق على المخدرات .. لأن مقومات الشريعة الإسلامية جاءت للحفاظ على هذا الكنز الإلهى .. الذى ميز الله

به الإنسان وهو العقل .. فالعقل هو أساس الرقى فى حياة الإنسان .. وإذا أردت أن تعرف ذلك .. أقول لك أرأيت جيلا من الحيوانات يعقد اجتماعا ليبحث فيه كيف يرتقى بمعيشته .. وينشىء له حظائر على أحدث نظام .. ويغير طعامه بطعام أفضل .. ويخترع الدواء لأمراضه .. ويحاول حل مشاكله بنفسه .. أرأيت جيلا من الحيوانات يفعل ذلك ؟ .. أرأيت حيوانا حين يوضع أمامه الطعام .. يقول أنا آكل هذا ولا آكل ذلك هذا الصنف من الطعام أفضل .. أو يقول سأوفر جزءا من هذا الطعام إلى غد .. أو يقول سأدخر جزءا من الطعام الذى أمامى للأيام القادمة .. أرأيت حيوانا حين يشبع يظل يأكل .. ولو أنك ضربته مهما ضربته ليأكل أكثر فهل يستجيب لك .

كل هذه التصرفات كفلها الله سبحانه وتعالى بالغريزة تحكمها .. ولذلك فإن هذه الغريزة تحرس حياة الحيوان ، فلا يأكل عودا من البرسيم أكثر من حاجته فيصاب بالتخمة .. ولا يخلق المشاكل فى حياته فتتعقد .. ولا يبقى طعام اليوم إلى غد أو بعد غد فيصيبه القلق والأسى .. ولكنه يتصرف بغريزته ويأخذ حاجته فقط .. حياته من مولده إلى يوم القيامة هى نفس الحياة التى وضعها الله له .. فهو لا يرتقى بنفسه .. ولا يطلب شيئا غير موجود .

ولكن الإنسان الذى حمل الأمانة أعطاه الله العقل مناط التكليف .. فهو بعقله يستطيع أن يختار بين البدائل التى خلقها الله سبحانه وتعالى .. فهو قادر على فعل الخير .. وقادر على فعل الشر .. وحتى يكون الحساب عدلا .. فإن مغيبات العقل كلها محرمة تماما .. مهما

أخذت أى شكل من الأشكال .. والذى يقدم عليها يحاسب لأنه قد عطل أداة الاختيار فيه .. وانطلق بلا وعى إلى أشياء حرمها الله .

واختيارات العقل هى التى تشقى الإنسان وتسعده فى الحياة .. وهى التى تقوده إلى الجنة أو النار .. فأنت بالغريزة لك انفعال واحد ورد واحد .. أما بالعقل فأمامك بدائل كثيرة تختار منها ما تريد .. فإذا ضرب الإنسان كلبا مثلا .. فإن الانفعال الغريزى لهذا الكلب هو أن يرد بأن يعض الإنسان ولا انفعال آخر .. كلما أوذى الكلب كان رده على الأذى أن يعض من آذاه .. والحمار أو الحصان مثلا يرفس من يؤذيه .. أى أن انفعاله له شىء واحد لا يتغير .. بينما الإنسان له عشرات البدائل من الانفعالات .. فإذا ضربك شخص فإنك تستطيع أن ترد الضربة بمثلها .. أو تردها بأشد منها .. أو تردها بأقل منها .. أو تصفح عمن ضربك .. أو تحسن إليه .. أو تكتفى بتوبيخه .. هناك بدائل لا حدود لها .. موجودة عند الإنسان وحده .. وما دامت هذه البدائل موجودة .. فلابد أن هناك فى الإنسان شيئا يجعله يختار .. أو يميز بين البدائل بحيث يتخذ القرار .. أما الذى ليس عنده سوى اختيار واحد فهو محتاج إلى فكر ليميز بين البدائل التى أمامه ..

وهنا نأتى إلى معنى الآية الكريمة :

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤ ﴾

(سورة البلد)

ولابد أن نعرف أن كلمة الإنسان حين تطلق من الله سبحانه وتعالى .. يراد بها الإنسان على إطلاق خلقه بلا تمييز بين مؤمن

وكافر .. أى أن الإنسان على إطلاقه مخلوق فى كبد .. أى فى ضيق ومعاناة .. لماذا ؟ .. لأنك وأنت أمامك هذه البدائل كلها مطلوب منك أن تختار فى كل لحظة من لحظات حياتك .. ماذا تفعل ؟ .. وكيف تتصرف ؟ .. هل ترد الإساءة بالإساءة ؟ .. أو تواجهها بالإحسان فيطمع فيك عدوك ؟ .. وأنت فى ضيق مالى هل تستقيل من وظيفتك وتبدأ عملا حرا ؟ .. وماذا يحدث لو أفلست إذا لو قمت بهذا العمل ؟ .. كيف تتصرف فى الصفقة التى أمامك .. ان بعتها فقد يرتفع سعرها فيضيع الربح الذى كنت تستطيع أن تكسبه .. وإذا لم تقرر البيع قد ينخفض السعر فتخسر .. أين الخير وأين الشر فيما يحدث لك وفيما تختاره ؟ هل اخترت الصواب أم الخطأ ؟ .. لو اتخذت هذا القرار فما هو أثره على غدك ومستقبلك ؟ .. أيأتى يوم تندم فيه على ما فعلت ؟ .. وإذا لم تتخذ القرار أتكون قد ضيعت فرصة عمرك كما يقولون ؟ .. وهل ستأتى فرصة غيرها ؟

إذن فالإنسان إذا امتنع عن اتخاذ قرار فهو فى ضيق .. لانه يحس أنه ربما أخطأ وربما فاتته الفرصة .. وإذا اتخذ القرار واختار أحد البدائل فهو فى ضيق وكبد .. لأنه يحس أنه ربما أخطأ فى قراره .. وإذا قال نعم .. فهو فى ضيق وكبد .. لأنه يحس أنه كان يجب أن يقول لا .. وإذا قال لا فهو فى تعب وكبد .. فربما كان الخير فى كلمة نعم . وهكذا لا يخرج من الضيق والمعاناة أبدا إذا اتخذ قرارا أو لم يتخذ .. وإذا قام بعمل أو امتنع عنه .. إنه يعيش فى ضيق دائم ..

والمخرج من هذا كله أن تتحد مرادات الإنسان وما يريده فى الحياة

مع مرادات منهج الله .. ولذلك فإن الإنسان المؤمن هو الذى يعيش فى راحة .. فالإنسان المؤمن كل قدر الله بالنسبة له هو خير .. والإنسان غير المؤمن كل قدر الله بالنسبة له يعتبره شرا .

والإنسان المؤمن إذا جاءه المال فهو خير .. وإذا ذهب عنه المال فهو خير .. فإذا جاءه المال كفاه حاجته .. وإذا ذهب عنه فربما كان سيقوده إلى المعصية والهلاك فأبعده الله عنه .. والإنسان غير المؤمن إذا جاءه المال فهو شر .. يخاف من الحسد فينكره .. ومن السرقة فيظل قلقا عليه ليل نهار .. ومن أن يضيع هذا المال فيحاسب نفسه على قرش ينفقه .. وإذا جاءته وجوه إنفاقه فهو يخشى أن تزيل وجوه الإنفاق هذه نعمة المال عنه وتفنيه .. وهو يحس أن كل من حوله يطمع فى ماله فتضيع ثقته فى الناس .. ويشعر أنهم جميعا خونة وطماعون .. وهكذا فإن المال أتاه بالشقاء .. فإذا ذهب المال عنه فهو شر .. لأنه ينظر إلى النعم التى أنعم الله بها على غيره من خلقه وتمتلىء نفسه مرارة وحسرة . ويحس بالضيق فى كل دقيقة من حياته .. ويشعر بالحرمان ويملأ نفسه السخط لانه يريد ولا يستطيع أن يحصل على ما يريد .

والإنسان المؤمن إذا كان صحيحا معافى .. يعرف قيمة الصحة ويشكر الله عليها .. وإذا مرض يعلم أن هذا ابتلاه من الله واختبار للإيمان .. ويرضى ليحصل على الثواب وينجح فى الاختبار .. والإنسان غير المؤمن يعتبر الصحة أمرا مفروضا .. فإذا أعطاه الله الصحة انطلق إلى المعاصى التى تذهبها عنه .. ويرهق جسده بالسفر والخمر والشهوات وفاخر الطعام يحشره حشرا .. فإذا مرض نتيجة هذا

السلوك .. سخط وضاق ولعن الدنيا ومن فيها .. وظل متبرما بالحياة فهو في ضيق دائما .

هكذا نرى أن التكليف أو الأمانة التي حملها الإنسان ليست مهمة سهلة ولا هينة .. بل هي مهمة صعبة واختبار دقيق بين مغريات الحياة ومطلوبات الإيمان وهي امتحان لا ينتهي في كل دقيقة .. كما سنبين ذلك في الفصول القادمة .. ولذلك لعظم هذه المهمة كان أمر الله لملائكته للسجود لآدم .

والله سبحانه وتعالى قد أعد للإنسان المؤمن في الآخرة جنات ونعيما عظيما وتكريما على قدرات الله سبحانه وتعالى .. وتحقيق هذا التنعيم والتكريم من الله سبحانه وتعالى لابد أن يكرم ساعة خلقه بأن يسجد الملائكة له .. وقد يكون ذلك تفضيلا من الله سبحانه وتعالى وتكريما للإنسان .. والله يكرم من يشاء ويرفع درجات من يشاء .. ولذلك أراد تكريم الذرية المؤمنة التي خلقت في ظهر آدم ساعة خلقه .. كل هذا تفسير لأمر السجود وان كان التفسير الأكبر هو التفسير الإيماني في أن الله سبحانه وتعالى يعبد لذاته .. وان الأشياء تأخذ تفضيلها ورفعة شأنها وكمال وجودها من الله .. ولا شيء له فضل ولا قدسية في ذاته .. وهذه حقيقة لابد أن نفهمها لأنها هي الحقيقة الإيمانية الكبرى .. ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد فضل الأماكن على بعض .. وبعض الأزمنة على بعض .. وبعض خلقه على بعض .. ولكن هذا التفضيل ليس في ذاتية هذه الأشياء كلها .. ولكن : اختيار الله لها .. فليس في هذه الدنيا كلها شيء مفضل لذاته .. ولعل هذا الاختبار

الإيمانى قد مر به المسلمون عند تغيير القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام .. وبعض الناس يتساءل عن حكمة تغيير القبلة .. وقد اختلف العلماء فى تفسير هذه الحكمة .. فبعضهم قال ان ذلك تم حتى نخالف اليهود والنصارى .. وبعضهم قال إن ذلك تم لإرضاء العرب الذين نزل الإسلام عليهم أولا حتى يكون بيت الله وقبلة المسلمين فى الجزيرة العربية .. وبعضهم قال غير ذلك .

ولكن الحكمة فى هذا كله تأتى من أن الله يريدنا أن نفهم أن عبادته .. يجب ألا نشرك معه فيها شيئا مهما كان هذا الشىء .. بل العبادة له وحده .. والطاعة له وحده .. وان اختياره سبحانه وتعالى للأشياء هو الذى يعطيها قدسيتها فى نفوسنا .. فإذا قال الله اتجهوا إلى بيت المقدس للصلاة .. اتجهنا إلى بيت المقدس .. لا لأنه مكان رسالات سابقة .. ولا لأن هذا المكان شهد الأنبياء السابقين .. ولكن الله هو الذى أمرنا أن نتجه إليه .. فإذا جاء أمر الله فى أن نتجه إلى الكعبة ، فإننا نتجه إلى الكعبة تنفيذا لأمر الله سبحانه وتعالى أن نتجه إليها .. ولا نعترض أو نقول ان بيت المقدس الذى شهد الرسالات السابقة هو أفضل وأقدس .. ذلك أن بيت المقدس أخذ قدسيته من أمر الله لنا بالاتجاه إليه فى أول الإسلام .. والكعبة المشرفة أخذت قدسيتها من أمر الله لنا بتحويل القبلة والاتجاه إليها .. وهكذا نعرف أن الألوهية والطاعة والتقديس لله وحده .. ولا ندخل معه شيئا إلا أمر الآمر وهو الله بأن نفعل ذلك .. لأن الله يعبد لذاته .

ولذلك فإن بعض الناس الذين يعتقدون أن هناك شيئا مقدسا لذاته

بعيدا عن أمر الله .. إنما هم قد يقعون فى خطأ جسيم .. ذلك أن مصدر العبادة كلها .. بذاتيتها وكل أوامرها ونواهيها .. هو الله .. فإذا قال سبحانه وتعالى : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول .. اكتسب رسول الله ﷺ حق الطاعة بأمر الله .. فأصبحت واجبة .. وإذا طلب الله سبحانه وتعالى أن نحج البيت .. اكتسب البيت حق الحج بأمر الله .. ولو طلب الله سبحانه وتعالى أن نحج إلى أى مكان آخر لقمنا بذلك امتثالا لأمر الله .. ولذلك نجد فى القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يوضح لنا هذه الحقيقة فى قوله سبحانه :

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ ﴾

(سورة البقرة)

﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ ﴾

(سورة البقرة)

وقوله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾

(سورة البقرة)

نجد أنه فى الآيات الأولى يقول الله :

﴿ سيقول السفهاء من الناس ﴾

ومعنى ذلك أن الله أنبأنا بما سيقولونه قبل أن يقولوه .. وهذا واضح فى استخدام حرف (السين) فى قوله تعالى « سيقول » .. ولو أنهم قد قالوا فعلا ما استخدم الله سبحانه وتعالى حرف السين .. وهذا إعجاز من القرآن الكريم .. فلو تنبه الكفار وغير المسلمين إلى هذه الآية التى نزلت قبل أن يقولوا شيئا لامتنعوا عن القول .. وحينئذ كان الجدل يثور حول القرآن الكريم بأن يقول هؤلاء الكفار وغير المسلمين ان القرآن قد قال :

﴿ سيقول السفهاء من الناس ﴾

ولكن أحدا لم يقل شيئا .. ولكن الله بقدرته جعلهم لا ينتبهون لهذا .. ويتساءلون ما ولاهم عن قبلتهم .. وبذلك يكونون وهم الكفار مثبتين للإيمان ، مؤيدين لصدق القرآن لأن القرآن قال عنهم :

﴿ سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم ﴾

وقد جاءوا وقالوا فعلا تصديقا لقول الله .. بل إن الله وصفهم بالسفهاء وقالوا لينطبق عليهم هذا الوصف .. وهكذا يستخدم الله الكفار لتثبيت الإيمان دليلا على صدق القرآن .. وليرينا أنهم سفهاء .

ثم يقول الله :

﴿ قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾

ويقول فى آية أخرى :

﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾

أى أن الله سبحانه وتعالى يرد على هؤلاء السفهاء .. ويقول انه سبحانه لا يحده زمان ولا مكان .. ففى أى مكان تتجه إليه فثم وجه الله .. وبذلك ينفى أن تكون حجة التغيير أن وجه الله موجود هنا ، وليس موجودا هناك .. أو أنه فى المشرق وليس فى المغرب أو العكس .. فالله فى كل مكان .. إذن فحكمة التغيير هنا لا تتعلق بذات الله ولا بوجهه .. ولا بمكان معين بالذات ولكنها كما قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وهنا يعطينا الله السبب فى التغيير وهو اختبار نعمة الإيمان فى النفس البشرية فى أن الله يعبد لذاته .. فتغيير القبلة هو اختبار إيمانى لمن يتبعون الرسول الذى يوحى إليه من الله .. بحيث إذا أبلغهم الرسول بوحى الله اتبعوه إيمانا منهم بأن الله يعبد لذاته .. فأقوياء الإيمان سينفذون الأمر بهذا المنطلق الإيمانى .. وضعاف الإيمان سيحاولون المجادلة بقولهم ان المسجد الأقصى له قدسيته لذاته فهو مكان الرسالات والأنبياء .. فكيف نتركه ونولى وجوهنا إلى البيت الحرام .. وهكذا نرى أن تغيير القبلة هز نفوس ضعاف الإيمان ووضع

أسئلة حائرة فى عقولهم .. وكان شيئا كبيرا بالنسبة لهم أن يتحولوا من المسجد الأقصى إلى البيت الحرام .. بينما المؤمنون لم يضع ذلك أى تساؤل فى نفوسهم وقلوبهم ، لأنهم يعلمون يقينا أنه لا شىء مقدس لذاته .. وفى هذا يقول الله :

﴿ وان كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله ﴾

بعد أن بينا هذا المنطلق الإيمانى .. نعود إلى أمر الله للملائكة بالسجود لآدم .. الملائكة يعبدون الله ويفعلون ما يؤمرون .. وفى سجودهم لآدم وإنما فعلوا ذلك لأمر الله بالسجود .. ليس لقدسية ذاتية فى آدم .. أى أنهم سجدوا لأن الله هو الذى أمر بالسجود .. والله كما قلت يعبد لذاته .. ولم يسجدوا لأن آدم له قدسية ذاتية من داخله تدفع الملائكة للسجود له لو أن الله لم يأمرهم بذلك .. وفى هذا رد على الذين يقولون كيف أن الملائكة سجدوا لآدم مع ان السجود لغير الله مرفوض .. نقول لهم انهم سجدوا لأمر الله فى السجود .. وليس لذاتية آدم نفسه .. وهنا يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾

(سورة الحجر ـ الآية ٣٠)

أى أنه لم يخرج عن هذا الأمر الذى أمر به الله أى ملك من الملائكة .. وإنما الذى خرج عن هذا الأمر هو إبليس .

وما حدث بين الله وملائكته عندما أبلغهم الله سبحانه وتعالى أنه سيجعل آدم خليفته فى الأرض .. أنبأ به الله فى سورة البقرة ..

وتساءل الملائكة عن الإفساد الذى سيحدث فى الأرض .. ووقف الشيطان . ورد الأمر على الآمر .. وأعلن رفضه لتنفيذ أمر الله بالسجود .

وعند هذه النقطة نكون قد وصلنا إلى كيف كرم الله آدم عند بداية الخلق .. وان آدم قد قبل حمل الأمانة ، وهى حرية الاختيار بين البدائل وهذا امتحان رهيب للإيمان ، وكيف ان الله سبحانه وتعالى قد ميز آدم وذريته بالعقل وهو أداة الاختيار .. ورفع التكليف والحساب لمن لم يكتمل عقله كالطفل .. أو من يفقد عقله كالمجنون .. وكيف أن إعطاء آدم حرية الاختيار قد أوجد نوعين من الحياة .. نوعا يكابد فيه ويقاسى الإنسان غير المؤمن .. ونوعا للحياة الطيبة للإنسان المؤمن .. أما تساؤل الملائكة عن إفساد آدم فى الأرض .. وكيف علموا ذلك .. وكيف علم الله آدم الأسماء فهذا هو موضوع الفصل القادم .

الفصل الرابع

إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً

إنى جاعل فى الأرض خليفة

خلق الله آدم وكرمه وأعده لمهمته فى الحياة .. ثم أخبر الله الملائكة بمهمة آدم فى الأرض ، وقال سبحانه وتعالى للملائكة :

﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) ﴾

(سورة البقرة)

وأول سؤال يتبادر إلى الذهن هو لماذا أخبر الله الملائكة بأنه سيجعل آدم خليفة فى الأرض .. وما الذى يجعل الله سبحانه وتعالى يخبر الملائكة بذلك .. وهل هذا الإخبار من الله يتنافى مع طلاقة قدرة الله فى كونه أنه يفعل ما يشاء عندما يريد وهو العزيز الحكيم :

﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾

(سورة الأنبياء الآية ٢٣)

لقد توقف عدد كبير من العلماء عند هذا السؤال .. وظهرت تفاسير كثيرة لن نتعرض لها .. ولكن سبب الإخبار هو إعلام الملائكة بمهمتهم التى سيقومون بها بالنسبة لآدم وذريته .. ذلك ان من بين هؤلاء الملائكة من سيكونون ﴿ كراما كاتبين ﴾ .. أى يكتبون كل ما سيفعله آدم وذريته فى الأرض .. يكتبون الحسنات .. ويكتبون السيئات .. ويكتبون أداء الإنسان للصلوات وطاعة الله .. كما يكتبون المعاصى التى يرتكبها الإنسان .. ومنهم الحفظة الذين يحفظون الرسل من كل سوء .. وهؤلاء سيكون لهم شأن مع الرسل من ذرية آدم الذين سيبعثهم ليذكروا ويبينوا منهجه للناس .. ومنهم الملائكة الموكلون بنفخ الأرواح فى الأرحام .. والملائكة الموكلون بقبض الأرواح وهم ملائكة الموت .. ومنهم الملائكة الموكلون بالأرزاق إلى آخر ما يوكل الله ملائكته لتنفيذه فى الكون .. مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ يَتَوَفَّـٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة السجدة)

وقوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة الانفطار)

وقوله سبحانه وتعالى :

﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ

مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن
فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾

(سورة آل عمران)

وهكذا نعرف من آيات القرآن الكريم أن الله جعل للملائكة مهام كثيرة مع الإنسان فى الأرض .. وأن إبلاغ الله سبحانه وتعالى للملائكة بمهمة آدم .. كان إعلاما لهم بالمهام التى سيقومون بها فى حياة ورزق وتثبيت المؤمنين فى القتال ، وكل الشئون التى سيكلفهم الله بها بالنسبة لرسالاته فى الأرض .. إلخ ما سيكلفهم الله به ، ولذلك كان إعلامهم بأن الله قد اختار آدم ليكون خليفته فى الأرض .

ما معنى اختيار الله لآدم كخليفة ؟ .. وما هى الخلافة التى أعطيت لآدم ؟ .. معناها أن الله سبحانه وتعالى قد خلق كل ما فى الأرض والسماء ، وسخره لخدمة الإنسان .. وجعله يعمل من أجله .. ولنعرض عرضا سريعا لما سخره الله للإنسان فى الأرض ليخدمه .. قال سبحانه وتعالى :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ ﴿٣٢﴾
وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة ابراهيم)

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾

(سورة النحل ـ الآية ١٤)

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة الحج)

﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(سورة لقمان ـ الآية ٢٠)

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الجاثية)

وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى سخر للإنسان ما فى الأرض وما فى السموات .. وجعل له الولاية عليها بأن تفعل له .. وأن تنفعل به .. وهكذا فإن هذا التسخير هو خلافة الإنسان لله فى كونه .. بل إن جسد الإنسان نفسه مسخر له بأمر الله .. ولكن يوم القيامة ينتهى هذا التسخير .. واستمع إلى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا
مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ
ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة فصلت)

وهكذا نرى أن السمع والبصر والجلود التى هى مسخرة فى جسد الإنسان تفعل له فى حياته ما يريد .. تأتى يوم القيامة لتكون شهيدا عليه فيما فعله من معاص .. لأنها فى الحياة الدنيا مسخرة بأمر الله لكى تطيع الإنسان .. فاليد تمتد لتسرق وهى تلعن صاحبها .. ولكنها لا تستطيع أن تعصى أمره ، لأن الله سبحانه وتعالى جعلها مسخرة له تفعل له ما يريد .. والعين تزنى وهى تلعن صاحبها .. ولكنها لا تستطيع أن تخالفه ، لأن الله سخرها له .. وكذلك الجلود والسمع وكل ما فى الجسد .. الله خلقه خاضعا لأمره ثم استخلف الإنسان فيه ليعمل ما يأمره به الإنسان .. وكذلك الكون كله .. البحار تلعن الكافرين ، ولكنها تعطيهم اللؤلؤ والأسماك والبخر الذى يكون السحاب وتحملهم إلى حيث يريدون دون أن تستطيع إلا أن تخدم الإنسان الذى جعلها الله مسخرة له ، وجعله خليفة فى هذا التسخير .. وكذلك الأرض والجبال والشمس والقمر . كل ذلك يعمل بأمر الله ولكنه يخدم الإنسان الذى استخلفه الله فى الأرض ، ولا يستطيع أن يعصى أو أن يتوقف عن خدمة الإنسان مؤمنا كان أو كافرا .

إنى جاعل فى الأرض خليفة

والله خلق هذا الكون كله ، وجعل الإنسان خليفة له فيه .. كل شىء فى هذا الكون فى السموات يخدم الإنسان .. وكلما تقدم العلم اكتشفنا مالا نعرفه عن كيف يخدم هذا الكون الإنسان الذى جعله الله سبحانه وتعالى سيدا للكون بطريق الخلافة ، بحيث عندما تنتهى هذه الخلافة يوم القيامة تنتهى سيادة الإنسان على الأرض وخلافته فيها ، ويصبح الأمر لله دون أن يستخلف أحدا فيه .. مصداقا لقوله تعالى :

﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(سورة غافر - الآية ١٦)

وتمضى الآيات :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ ﴾

(سورة البقرة - الآية ٣٠)

والسؤال الأول الذى يتبادر إلى أذهان الكثيرين كيف علم الملائكة أن الإنسان سيفسد فى الأرض ويسفك الدماء .. لابد أنه كانت هناك تجربة لخلق آخر لله أعطاهم الله سبحانه وتعالى حق الاختيار فى أن يكونوا طائعين أو يكونوا عاصين .. فأفسدوا فى الأرض وعصوا بعد أن تعهدوا بأنهم سيصلحون ويطبقون منهج الله فى الأرض - من هم هؤلاء الخلق ؟ .. قد يكونون هم الجن لأن لهم الاختيار .. ولأن منهم الصالحين ومنهم العاصين .. وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾
يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ
رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا
﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الجن)

.. ثم تقول نفس السورة :

﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الجن)

وقوله تعال :

﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا
﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة الجن)

وقوله تعالى :

﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ

كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ
أَحَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الجن)

وقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

- أى الإنس والجن -

وهكذا نعرف يقينا من القرآن الكريم أن الجن سيحاسب يوم القيامة .. وأن الرسالات السماوية قد نزلت إلى الإنس والجن مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ
قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ
إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى
ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة الأحقاف)

فالجن منهم الصالحون ومنهم الظالمون .. ولم يخبرنا الله سبحانه

وتعالي فى القرآن الكريم أنه خلق شيئا مختارا فى سلوكه .. مختارا فى الإيمان والمعصية إلا الجن والإنس .. وقد يكون هناك خلق آخر لم يخبرنا به الله .

إذن فقول الملائكة :

﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ .

قد يكون منصبا على الجان الذين خلقهم الله مختارين . من قبل .. ولكن ما هو الدليل على أن خلق الجان قد سبق خلق الإنسان بحيث رأى الملائكة هذه التجربة فيمن خلقهم الله غير مسخرين ، وأعطاهم حرية الاختيار فقاسوا عليها تجربة الإنسان الذى أعطى نفس الحق وهو حق الاختيار .. الدليل على ذلك يأتى من القرآن الكريم إذ يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورةالحجر)

فالله سبحانه وتعالى قد أخبرنا فى القرآن أنه خلق الجان قبل خلق الإنسان .. ويقول المفسرون إن الجان قد أفسدوا فى الأرض .

وعلى أية حال فإن الثابت يقينا أن الله قد خلق الجان قبل أن يخلق الإنسان .. وأنه قد أعطى الجان حرية الاختيار ولم يجعله مسخرا .. وقد يكون الله سبحانه وتعالى خلق خلقا آخر قبل الجان لم يخبرنا به .. وعلى ذلك فكون الإنسان ليس أول مخلوقات الله المخيرين يفتح الباب لاحتمال أن هناك خلقا أفسدوا فى الأرض .. وان الملائكة شهدوا التجربة وقاسوا عليها .

ثم قال الملائكة :

﴿ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾

أى أن الملائكة يقولون يارب أنت قادر على أن تخلق خلقا مسخرين يسبحون بحمدك بدلا من خلق مخيرين يفسدون فى الأرض ويكفرون بالله .. وهذا القول قد قاله الملائكة فى أنفسهم .. ولم يجهروا به كما سيأتى بيان ذلك وهذا يدل على ان الملائكة لم تفهم مرادات الله من خلق الإنسان .. ذلك أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يخلق ما يشاء مسخرا لعبادته وتسبيحه .. ولكن الله يريد خلقا يأتيه طواعية واختيارا .. يأتيه عن حب ورغبة .. لا عن قهر ورهبة .. مخلوق قادر على أن يفعل المعصية ولكن لا يفعلها حبا فى الله .. مخلوق قادر على ألا يقوم بالطاعات والعبادات .. ولكنه يقوم بالطاعات والعبادات حبا فى الله .. مخلوق قادر زينت له الدنيا .. وزينت له الشهوات فأصبحت محببة إلى نفسه ولكنه يتركها لأن حبه لله أكبر .

هذه هى مرادات الله سبحانه وتعالى من خلق الإنسان وتحميله الأمانة فى أنه يأتى لطاعة الله وحب الله ، وهو قادر على ألا يأتى .. ولذلك أعد له من النعيم فى الآخرة .. ما لم يعده لأحد من خلقه جزاء له على طاعته .. وأعد له من العذاب ما لم يعده لأحد من خلقه عقابا له على معصيته .

هذه هى فلسفة خلق الإنسان ، ولذلك فإن الله إذا شاء يستطيع أن يخلق كما يشاء عبادا مقهورين له .. ولكنه يريد عبادا يأتونه عن حب

وعن رغبة .. ولذلك أسقط الله الحساب عن كل إكراه فى العبادة .. وقال الله سبحانه وتعالى :

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ۚ ﴾

(سورة البقرة ـ الآية ٢٥٦)

وقال سبحانه :

﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ ﴾

(سورة النحل ـ الآية ١٠٦)

وقال سبحانه :

﴿ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة النور)

ولذلك قال الله سبحانه وتعالى للملائكة :

﴿ إنى أعلم مالا تعلمون ﴾

أى أن الله سبحانه وتعالى هو العليم بمراداته وأن الملائكة حينما ظنوا أن الله سبحانه وتعالى يريد خلقا يسبح بحمده مقهورين لم يكونوا

يعلمون علم الله سبحانه وتعالى فى أنه يريد خلقا يأتونه طائعين مختارين .. وعدم علم الملائكة من مرادات الله .. هو من تمام علم الله .. لأن الله سبحانه وتعالى محيط بعلم الملائكة .. والملائكة لا يحيطون بعلم الله .

ثم تمضى السورة الكريمة إلى قول الحق :

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾

(سورة البقرة ـ الآية ٣١)

وهذا إعجاز آخر من إعجاز القرآن الكريم ـ ذلك أن الله قد جعل بداية العلم للبشرية كلها بالأسماء .. فكما علم الله آدم الأسماء فإن أى بشر لا يستطيع أن يصل إلى العلم الذى يؤهله ليبدأ التحصيل إلا إذا تعلم الأسماء .. خذ الطفل الصغير .. أى طفل فى أى مكان فى العالم ـ كيف يبدأ تعليمه ؟ .. إذا كان فى المدرسة أو كان أميا فى البيت يبدأ تعليمه الأسماء أولا .. فيقال له هذا كوب .. وهذا جبل .. وهذا رجل .. وهذا بيت .. وهذا بحر .. وهذا شارع .. وهذه قطة .. وهذه امرأة إلخ .. وبعد أن يتعلم الأسماء يبدأ فى تحصيل العلم ولكن بعد أن يكون قد استوعب الأسماء .. وحتى الطفل الأمى الذى لا يذهب إلى المدرسة تقوم أمه بمهمة تعليمه الأسماء حتى يستطيع أن يتعلم بعد ذلك كيف يمضى فى حياته العادية .. وبدون تعلم الأسماء فإن الطفل يتعثر ولا يستطيع أن يمضى ولا أن يحصل علما .

وهكذا أنبأنا القرآن بالطريقة التى حددها الله ليحصل الإنسان على

العلم بداية بالأسماء .. بل وأكثر من ذلك بالاستعانة بالصورة كما سيأتى بعد ذلك .. إذن كون البشرية كلها حتى يومنا هذا تبدأ بالتعليم دليل على إعجاز القرآن الكريم الذى حدد لنا طريقة البداية فى التعليم .

علم الله سبحانه وتعالى آدم الأسماء كلها .. وعرف آدم الأسماء .. ثم ماذا حدث بعد ذلك ..

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة البقرة)

أى أن الله سبحانه وتعالى بعد أن علم آدم الأسماء عرضهم على الملائكة .. وطبعا لم يعرض الله الأسماء على الملائكة ، وإنما عرض المخلوقات التى تطلق عليها هذه الأسماء على الملائكة بدليل أن الله سبحانه وتعالى قال :

﴿ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

(سورة البقرة ـ الآية ٣١)

وقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ أنبئونى بأسماء هؤلاء ﴾

دليل على أنه لم يعرض الأسماء على الملائكة ، لكنه عرض

المخلوقات التى تطلق عليها هذه الأسماء .. ثم طلب من الملائكة أن يقولوا له الأسماء .

وهنا لابد أن نتوقف عند قول الله :

﴿ إنْ كنتم صادقين ﴾

ذلك أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يفهم الملائكة أنهم لم يكونوا صادقين فى فهمهم لمرادات الله من خلق الإنسان .. ومن عدم فهمهم أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يخلق من يعبده عن اختيار وحب ورغبة .. لا عن قهر ورهبة .

وهنا اعترف الملائكة بعجزهم أمام علم الله سبحانه وتعالى .. واعترفوا بأنهم لم يفهموا مرادات الله ، حين قال لهم :

﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾

(سورة البقرة ـ الآية ٣٠)

فقالوا سبحانك .. أى تعاليت وتنزهت عن أن يحيط بعلمك ، وبمراداتك أحد .. وسبحان الله وليس كمثله شىء .. هى ما نلجأ إليه عندما ننسب الفعل إلى الله سبحانه وتعالى .. حينئذ يكون الفعل خارجا عن كل قيود وتصورات البشر .. ويكون فى كل معجزاته وخرقه لنواميس الكون إنما هو مناسب بقدرة الله سبحانه وتعالى الذى خلقت هذه النوامس والقوانين ، والتى تستطيع أن تخرقها متى شاءت .. وأن تفعل من المعجزات ما تشاء .. وقال الملائكة معترفين بعجزهم أمام قدرة الله سبحانه وتعالى :

﴿ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾

(سورة البقرة ـ الآية ٣٢)

وكل مخلوقات الله لا علم لهم إلا ما أتاحه الله لهم من العلم .. فالعلم كله يأتى من الله .. والله يكشف من علمه وقدراته فى الكون ما يشاء لمن يشاء .. وكل كشف علمى فى الكون قد جعل الله له ميلادا أو موعدا يكشفه فيه للبشر .. فإن صادف مولد هذا العلم باحثا يبحث فيه كشفه الله له .. وإن لم يصادف تم الكشف بما نسميه نحن الصدفة .

والمصادفة التى ندعيها فى الكون .. هى الموعد أو الميلاد الذى حدده الله سبحانه وتعالى ليكشف عن قانون فى الكون يجهله الناس .. عسى أن يدركوا بهذا القانون الذى كان يعمل فى خدمة الإنسان ولم يكن أحد يدرى عنه شيئا .. عسى أن يكتشفوا بهذا القانون إعجاز من إعجازات الله فى كونه .. فيزيدهم هذا الإعجاز فهما وإدراكا لعظمة وقدرة الله سبحانه وتعالى .

ولكن الذى يحدث للأسف الشديد أن الإنسان ينسب الفضل لنفسه .. وينسب الكشف لنفسه وينسى قدرات الله .. وكل شىء فى هذا الكون ابتداء وانتهاء هو من الله .. فحبة القمح التى نأكلها الآن أتت من زرعة القمح فى الموسم الماضى .. وزرعة القمح فى الموسم الماضى أتت من زرعة القمح من الموسم الذى قبله .. وهكذا تسلسل الأشياء حتى نصل إلى حبة القمح الأولى التى لم تأت من موسم سبق .. من أين أتت هذه الحبة ؟ .. من الله سبحانه وتعالى .. والشجرة

التى تراها أمامك جئنا ببذرتها من شجرة سابقة .. والسابقة جئنا ببذرتها من شجرة أسبق وهكذا تمضى حتى نصل إلى الشجرة الأولى .. من الذى أنبتها ما دامت لم تأت من شجرة سابقة .. فلابد أن الله سبحانه وتعالى هو الذى أوجدها .

ونفس الشىء ينطبق على الإنسان والحيوان .. فكل حيوان موجود .. هو مولود من حيوان سبق .. والحيوان الأول لابد أن يكون قد خلقه الله .. وإذا طبقنا نفس النظرية على الإنسان .. نسأل إناسا من أين جئت ؟ فيقول من زواج أبى وأمى .. هذا إذا أخذنا بظاهر الأسباب .. والأب والأم جاءا من أبوين وأمين سابقين .. وهكذا نمضى حتى نصل فى النهاية إلى أنه لابد أن يكون هناك ذكر وأنثى جاءا من خلق مباشر .. وهذا الخلق المباشر هو الذى أوجده الله بخلق آدم وحواء .

والعجيب أن العلماء الذين يتناولون هذه المسألة دخلوا فى متاهات كثيرة .. ولعل من أكثر هذه المتاهات شيوعا ، وأقربها إلى العقول هذا الجدل العنيف الذى يدور حول : هل وجدت البيضة أولا أم الفرخة ؟ .. وفى هذه تتصارع النظريات وتختلف الآراء .. وكل يحاول أن يدلل على صدق تخمينه . وكل هذه النظريات خاطئة تدل على جهل بشرى بحقيقة الخلق .. والله سبحانه وتعالى قد أخبرنا أنه خلق كل شىء من ذكر وأنثى .. فإذا وجد الذكر وحده دون الأنثى فنى الخلق بعد فترة قصيرة .. وإذا وجدت الأنثى وحدها بدون الذكر فنى الخلق بعد فترة قصيرة .. وإذن لابد من ذكر وأنثى ليتم التكاثر وتتم استمرارية الخلق .

ولقد تنبهت البشرية فى الفترة الأخيرة إلى هذا الإعجاز الذى ذكره القرآن الكريم منذ أكثر من أربعة عشر قرنا .. ولذلك فإن النظريات الحديثة للقضاء على الآفات الزراعية قد تنبهت إلى حقيقة ان الاستمرارية جعلها الله سبحانه وتعالى فى الذكر والأنثى معا .. ووصلت إلى اختراعات بالأشعة وغيرها تقوم بها بتعقيم الذكور فتنتهى الآفة تماما .. أو تقوم على أساس القضاء على إناث الحشرات فتنتهى الآفة تماما ولا تعود .. ولكن البشرية كانت تعتمد منذ أعوام قليلة على إبادة الحشرات دون تمييز بين ذكر وأنثى .. ولذلك لو أفلتت من هذه الإبادة انثى واحدة وذكر واحد ، لعادت الحشرة إلى تكاثرها من جديد .. وبدأت تهدد بإتلاف الزرع والنبات مرة أخرى .. ومهما كانت المبيدات التى تستخدم فى هذا المجال قوية فإنه فى معظم الأحيان يفلت من الإبادة عدد ولو قليلا جدا من الذكور والإناث لتعود الآفة الحشرية مرة أخرى أقوى مما كانت .

ولذلك فإن السؤال عمن الذى وجد أولا : البيضة أم الفرخة سؤال ساذج ، لأن البيضة لو لم توجد ملقحة لا يخرج منها الكتكوت ، لذلك لو أتينا بعدد كبير من الفراخ التى تبيض ولم يتم تلقيح هذا البيض بواسطة الذكور .. فإنه لا ينتج عنه شىء ولا يخرج منه كتكوت واحد مهما بلغ عدد هذا البيض .. ولكن إذا وجد الديك والفرخة معا .. أمكن أن تنشأ أجيال من الدجاج بعد ذلك .

وهذا ينطبق على النبات أيضا .. فإذا لم توجد الذكورة والأنوثة فى النبات لا يتكاثر ولا يعطى ثماره .. ولذلك فإن الإنسان يكون حريصا

على تلقيح أنثى النبات بالذكر كما يحدث فى النخل مثلا .. وأحيانا تكون الذكورة والأنوثة موجودة فى زهرة واحدة أو فى شجرة واحدة فيتم التلقيح ذاتيا .. وأحيانا تحمل الرياح عوامل الذكورة من زهرة إلى زهرة أخرى .. بل انه ثبت أخيرا من الأبحاث العلمية أن هناك ذكورة وأنوثة فى السحاب .. ولقد استخدمت فى الحروب الأخيرة وخصوصا فى حرب فيتنام حيث كانت الطائرة تقوم برش ذرات تشبه ذرات ذكورة السحاب فينزل المطر من السحابة .. وقال بعض الجهلاء ان هذا انكشاف لأحد الغيبيات الخمسة التى اختص الله بها نفسه فى قوله تعالى ﴿ وينزل الغيث ﴾ .. ونسوا أن عملية المطر تبدأ من البخر من سطح البحر بواسطة أشعة الشمس ومن كل المياه المعرضة للجو وأن هذه تتصاعد فى طبقات الجو العليا لتكون السحاب الذى يسوقه الله سبحانه وتعالى بواسطة الرياح إلى الأماكن التى قدر الله أن ينزل فيها المطر .. وان هذه العملية تتم دون أن يحس بها إنسان .. وانه لا توجد قوة فى العالم تستطيع أن تقوم بعملية البخر هذه إلا الله سبحانه وتعالى .. وانه لا توجد قوة فى العالم تستطيع أن تأخذ سحابا وتنقله من مكان إلى مكان آخر بواسطة وسائل صناعية .

وتمضى الآية الكريمة بعد أن قال الملائكة :

﴿ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

(سورة البقرة ـ الآية ٣٢)

أى أن الله سبحانه وتعالى هو العليم فوق كل عليم ، والحكيم الذى لا يدرك خلقه حكمته فى كثير من الأمور .. وهنا قال الله لآدم :

إنى جاعل فى الأرض خليفة

﴿ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ ﴾

(سورة البقرة ـ الآية ٣٣)

أى أن الله سبحانه وتعالى طلب من آدم أن ينبىء الملائكة بأسماء تلك المخلوقات التى لا يعرفون أسماءهم والتى عجزوا أن يذكروا أسماءهم أمام الله .

وهنا نتوقف قليلا لنقول كيف أنبأ آدم الملائكة بهذه الأسماء .. لابد أنه أنبأهم بها بلغة يفهمونها .. فما دامت هذه الأسماء فهو تنطق أى تقال .. فمن أين عرف آدم اللغة التى يتحدثون بها : واللغة هى وليدة البيئة أى أنها لا تورث ولا تكون فى الإنسان بالطبيعة .. بل لابد للإنسان أن يسمع حتى يتكلم .. ولذلك نجد أن الصم الذين لا يسمعون والذين ولدوا هكذا لا يستطيعون أن ينطقوا بحرف واحد .

ولكى ندلك على ما نقول فإننا إذا أخذنا طفلا عربيا ساعة مولده وذهبنا به إلى بلاد تتكلم اللغة الانجليزية وتركناه هناك .. فإنه ينشأ يتكلم اللغة الانجليزية ولا يعرف حرفا واحدا من اللغة العربية رغم أن أصله أبا عن جد عربى .. وإذا فعلنا العكس وأخذنا طفلا انجليزيا لحظة مولده وتركناه فى بلد يتحدث العربية فإنه ينشأ يتحدث العربية ولا يعرف كلمة واحدة من اللغة الانجليزية التى هى لغة آبائه وأجداده .. فاللغة وليدة البيئة وليست بالمولد ولا بلغة الأب أم الأم .

والذى يتكلم لابد أن يسمع أولا قبل أن ينطق .. وآدم قد نطق بأسماء

هذه المخلوقات فلابد أنه سمع حتى يستطيع أن ينطق .. فمن الذى علم آدم الكلام ؟ .. إنه الله .. وهكذا فإن إعجازاً آخر من إعجاز القرآن الكريم يدل على أن الله هو الذى علم الإنسان الكلام .. وآدم قد تعلم اللغة من خالقه سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة البقرة)

أى ان آدم عندما عجز الملائكة عن أن يقولوا أسماء المخلوقات التى عرضها الله عليهم طلب الله من آدم أن ينطق بهذه الأسماء فنطق بها وأنبأ بأسماء هذه المخلوقات .. وحينئذ وقف الملائكة وهم يرون هذا الإعجاز من الخالق فقال لهم الله سبحانه وتعالى :

ألم أنبئكم أنى أعلم الغيب وأعرف ما سيقع فى السموات والأرض ولا يغيب عنى شىء وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون .

وهنا نتوقف عند قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ **وما كنتم تكتمون** ﴾ إذ أن هذا يبين لنا أن الملائكة لم يجهروا بالقول لله سبحانه وتعالى :

﴿ **أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء** ﴾ .

ولكنهم قالوا ذلك فى أنفسهم دون الجهر .. وعلمه الله سبحانه وتعالى لأنه يعلم ما نخفى وما نعلن .. وعلمه رغم كتمان الملائكة عن

الجهر به .. فرد عليهم بتجربة عملية بأن علم آدم الأسماء ووقف الملائكة عاجزين عن معرفة هذه الأسماء وهنا قال الله سبحانه وتعالى للملائكة أنه رد على ما قالوه فى أنفسهم ولم يجهروا به وأنه لا شىء يغيب عن علم الله .

هنا يريد الله أن يعلمنا عدة حقائق هامة .

أولا : انه لا أحد يستطيع أن يحيط بمرادات الله حتى ولا الملائكة المقربون .. ذلك ان الله سبحانه وتعالى هو وحده العليم .. ولا أحد من خلقه يستطيع أن يصل إلا إلى ما يريده الله أن يصل إليه .. وان لكل مخلوق مقامه الذى لا يتعداه .

ثانيا : ان الله سبحانه وتعالى حين جعل الإنسان خليفة له فى الأرض سخر له كل شىء تسخيرا دنيويا ـ أى ان كل شىء مسخرلخدمة الإنسان بأمر الله .. حتى جسد الإنسان وجوارحه تأتى يوم القيامة تشهد عليه لأنها مسخرة له فى الحياة الدنيا فقط .. فهى تنفذ له الخير والشر وتتبع إرادته بأمر الله .

ثالثا : ان الله حين خلق الإنسان يريد خلقا مختارا فى أن يفعل أو لا يفعل حتى يقبل هذا الخلق على العبادة عن اختيار ، وحب .

رابعا : ان كل شىء فى هذا الكون أصله من الله ونهايته إلى الله .. وان الثمرة الأولى والشجرة الأولى والإنسان الأول وكل خلق أول هو خلق مباشر من الله سبحانه وتعالى لا يخضع للأسباب التى يتم بها ما يحدث فى الدنيا .

خامسا : ان اللغة علمها الله لمخلوقاته ، لأن اللغة هى ابنة السماع ، ولذلك فلابد أن آدم وهو أول من خلق يكون قد علمه الله اللغة حتى يستطيع أن يتحدث بها ، ثم أخذها أبناؤه وأحفادهم بالسمع وتعددت اللغات حسب البيئات المختلفة .

ونأتى بعد ذلك إلى موقف الشيطان من خلق الإنسان .. وما هى معصية ابليس وكيف حدثت ؟ .. وهذا موضوع الفصل القادم .

يـا ابـــن آدم

« يا ابن آدم انك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى .

يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ولا أبالى .

يا ابن آدم انك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة » .

■ ■ ■

أحاديث قدسية

يا عبادى

« يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا .. يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته . فاستهدونى أهدكم .. يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعته فاستطعمونى أطعمكم ..

يا عبادى كلكم عار إلا من كسوته . فاستكسونى أكسكم .. يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا باستغفرونى أغفر لكم .

يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى .. ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى .

يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وأنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا .. يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وأنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا .

يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وأنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر .

يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله .. ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » .

■ ■ ■

الفصل الخامس

معصية إبليس

معصية إبليس

أثارت معصية إبليس جدلا كثيرا مازال يدور حتى الآن .. والجدل هنا يدور حول قشور وظروف وملابسات لا تمس جوهر المعصية التى قام بها إبليس .. وإنما تمس جوانب العلم فيها لايفيد .. ولكن الجدل والتساؤلات تدور دائما حولها ، وكأنما لو لم نعرف التفاصيل الدقيقة لما حدث لكان لذلك أثر على جوهر ما حدث فعلا .. وهو ما ليس بحقيقة . والحقيقة أن إبليس عصى ربه .. عصى أمر الله فى السجود لآدم .. ثم زاد على ذلك بأن رد الأمر على الآمر .. فقال أنا خير منه خلقتنى من نار ، وخلقته من طين .. وكأن الله سبحانه وتعالى ـ تجلى وتنزه ـ لأحد مخلوقاته ليقول له .. من هو الأحسن والأفضل .. هذا هو جوهر المعصية .

ولكن التساؤل يدور حول أشياء هامشية .. إن أمر السجود صدر للملائكة ولم يصدر لإبليس الذى كان من الجن .. فكيف يحاسبه الله على عدم السجود .. وهل كان إبليس يقف مع الملائكة وقت صدور الأمر ؟ .. بينما هو ليس منهم .. وهل كان إبليس فى الجنة وكيف يدخلها ؟ .. وإذا كانت الغواية من الله لإبليس هى التى سببت المعصية مصداقا لقوله تعالى :

﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

فكيف يكون الحساب مع أن الله هو الذى أغوى .. ولماذا غفر الله لآدم ولم يغفر لإبليس .. إلى آخر ما نسمعه من أسئلة تدور بين الناس حول هذا الموضوع .. محاولة أن تجد له جوابا .. أو محاولة من وراء

ستار طعن الدين بإيجاد أسئلة غيبية قد تتعذر الإجابة عنها .

ولذلك فإننى رغم إيمانى بأن هذه الأسئلة جانبية .. سأحاول أن أجيب عنها كلها .. لا بالنسبة لأهميتها ولكن حتى لا تستخدم فى محاولة التشكيك فى دين الله .. وسأستخدم الأدلة من القرآن قدر ما يهدينى الله إلى ذلك .

تبدأ القصة عند أمر الله للملائكة بالسجود .

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الحجر)

وهكذا عندما خلق الله آدم قال للملائكة أنى خالق بشراً . فإذا سويته . أى جعلته على الهيئة التى سيكون عليها . ثم بعد ذلك وهبته الحياة بالتقاء الروح بالجسد .. فنفخت فيه من روحى فاسجدوا له . فسجد الملائكة كلهم إلا إبليس .

وهنا تأتى وقفتنا الأولى .. ان الخطاب هنا للملائكة .. وإبليس من الجن أى أن الله سبحانه وتعالى لم يوجه الخطاب إليه . فلماذا قال الله

سبحان وتعالى « إلا إبليس أبى » نقول أن الأمر يصدر إلى الأعلى ويكون الأدنى منه مطالبا بأن ينفذ هذا الأمر بالتبعية .. فإذا قلنا مثلا أن الوزير لابد أن يكون فى مكتبه فى الساعة التاسعة صباحا .. أنصب هذا الأمر على من هم أدنى منه دون أن نذكرهم .. فما دام الوزير سيأتى إلى مكتبه فى التاسعة صباحا .. فإنه من باب أولى أن يكون وكلاء الوزارة ومديرو العموم وغيرهم فى مكاتبهم قبل ذلك الموعد ، أو على الأقل فى مثل هذا الموعد .. فالأمر انصب عليهم دون ذكرهم بالاسم .. وإذا قلنا أن رئيس الدولة سيكون فى موقع ما الساعة الثامنة صباحا .. فمن باب أولى أن يكون كل المسئولين عن هذا الموقع فى أماكنهم قبل الثامنة صباحا .

إذن فالأمر إلى الأعلى يشمل الأدنى دون أن يذكر بالاسم .. فإذا كان الأمر قد صدر إلى الملائكة ، وهم أعلى فى المرتبة عند الله من الجن ، فمن باب أولى أن يشمل الأمر الجن وغيره من الخلوقات الذين هم أدنى من الملائكة ولو لم يذكروا .. ولو لم يحددوا بصفاتهم .. ومن هنا فإن الأمر حين صدر إلى الملائكة قد صدر إليهم وإلى من هم أدنى منهم فى الخلق ، ولو لم يذكروا بالاسم .. وهكذا فإن القول بأن الأمر لم يصدر لإبليس بالسجود مردود عليه بأن أمر السجود يشمله ما دام قد صدر للملائكة الذين هم أعلى منه .. و يبين الله سبحانه وتعالى ذلك فى قوله :

﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾

(سورة الحجر - الآية ٣١)

معصية إبليس

ويقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ يا إبليس ما لك ألا تكون مع الساجدين ﴾

أى أن إبليس أبى أن يكون مع الساجدين من الملائكة وغيرهم .. أى أبى أن يكون مع كل من سجد لأمر الله .. ولقد حسم الله سبحانه وتعالى هذه النقطة أنه كان فى علمه هناك من سيأتون ويجادلون بالباطل .. ويقولون أن الأمر صدر للملائكة ولم يصدر للجن .. فقال الله :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾

(سورة الكهف ـ آية ٥٠)

وقال سبحانه :

﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾

(سورة الأعراف ـ الآية ١٢)

ومعنى فسق أنه عصى وخرج عن المنهج .. وهنا يجب أن نتنبه إلى قول الله تعالى :

﴿ ففسق عن أمر ربه ﴾

أى أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن الأمر قد صدر منه إلى الجن بالسجود فقوله تعالى :

﴿ ففسق عن أمر ربه ﴾

دليل على أن أمر الله سبحانه وتعالى صدر إلى الملائكة ، ومن هم أدنى منهم .. وحتى يحسم الله الجدل البشرى الذى سيحدث حول ذلك .. أتى بها صريحة مباشرة بعد أن ذكرت مجملة فى أمر السجود للملائكة .. ففى الأمر الأول لم يفصل لنا الله من شملهم أمر السجود ..

ولكنه فى هاتين الآيتين ذكر لنا أن أمر السجود لآدم قد شمل الجن وإبليس الذى كان من الجن .. وأن إبليس عصى أمر ربه بالسجود حتى لا يأتى قائل ويدعى كما يقال الآن أن الأمر بالسجود لم يشمل إبليس لأنه كان من الجن والله قال :

﴿ ما منعك أن تسجد إذ أمرتك ﴾

وقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ فسجد الملائكة كلهم أجمعون ﴾

دليل على أنه لم يشذ ملك واحد عن أمر الله بالسجود .. لأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

لماذا لم يسجد إبليس .. يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة الحجر .

﴿ إلا إبليس أبى ﴾

.. ويقول فى سورة ص :

﴿ إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين ﴾

ويقول فى سورة البقرة :

﴿ إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴾

ويقول فى سورة الكهف :

﴿ إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ﴾

الآية الأولى تبين لنا أن إبليس رفض السجود .. والآية الثانية تعطينا تفاصيل أكثر ، وتقول إن الكبر قد ملأ صدر إبليس ، واستكبر على أمر الله بالسجود .. والآية الثالثة تبين لنا أنه لم يرفض السجود فقط ، ولكنه رفض واستكبر على أمر الله .. أى أنها جمعت الصفتين معا .. والآية الرابعة تبين أنه عصى أمر ربه .

هذه الآيات تصور لنا أبعاد المعصية التى تمت .. فعندما أصدر الله سبحانه وتعالى أمره إلى إبليس بالسجود فإنه رفض تنفيذ الأمر ، وهذه هى المعصية الأولى .. أمر من الله يصدر وإبليس يرفض التنفيذ .

وما دام إبليس قد رفض التنفيذ فلابد أن نعرف بدهيا أن الله سبحانه وتعالى خلقه مختارا فى أن يفعل أو لايفعل .. فلولا أن الله أعطاه حق الاختيار ، لما استطاع إبليس أن يرفض السجود حين أمره الله بذلك .. وهنا دخل إبليس فى المرتبة الأولى ، وهى المعصية .. والله سبحانه وتعالى فى منهجه أمر بأشياء ونهى عن أشياء .. وخلق الإنسان فى الدنيا مختاراً فى أن يطيع أو لا يطيع .. أى أن ذلك يحدث باختيار البشر حتى يكون الحساب عدلا .. وبما أن الجن أعطاه الله حق الاختيار كالبشر ، فهو يملك أن ينفذ أو أن يأبى التنفيذ ـ وحسابه على ذلك يكون من الله فى الدنيا وفى الآخرة .

ولكن إبليس لم يرفض تنفيذ أمر السجود فقط .. ولكنه استكبر عن

تنفيذ أمر الله .. أى أنه دخل الكبر إلى نفسه .. فلا يمكن أن يقال أنه سها مثلا عن السجود .. أو أنه نسى أو أنه عصى فقط .. بل أنه استكبر على أمر الله سبحانه وتعالى .. أى كانت المعصية بعدم الطاعة استكبارا على أمر الخالق والعياذ بالله .. وهنا وصفه الله سبحانه وتعالى بأنه من الكافرين .. لماذا ؟ لأن الاستكبار على أمر الله هو إهدار لمعنى الألوهية فى النفس .. فالإله هو القوى القادر الذى يعبد ويطاع .. ومادمت قد آمنت بالله ربا وخالقا ، فإنك قد أوجبت على نفسك الطاعة ، وأسلمت زمامك لله ، وآمنت بأنه هو العليم والحكيم والقادر .. والإيمان هو خشوع لله .. هو اعتراف من النفس البشرية بضآلتها أمام قدرة الله سبحانه وتعالى .. ولذلك يقول الله فى سورة المؤمنون :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

أى أن الخشوع لله هو علامة الإيمان .. قد تزل النفس البشرية وترتكب المعاصى .. ولكنها تعود فتتذكر قدرة الله فتستغفر .. وقد تكون النفس البشرية ضعيفة فلا تقوم بتطبيق المنهج كما أمر الله به .. ولكن هذا لا يعنى أنها استكبرت على الله .. بل هو ضعف فى أن تحمل النفس صحابها على المنهج .. وقد تلهى الإنسان الدنيا .. ولكن إذا ذكر الله أحس بالرهبة تملأ قلبه .

وإذا ذكره أحد بالله قال سبحانك .. ولكن الذى يستكبر يريد أن يضع نفسه فوق مرتبة الألوهية .. انه لا ينفذ الأمر فقط .. ولكنه يحس أنه أكبر من أن ينفذه .. وأكبر من أن يؤمر .. وأنه أكبر من أن يطيع ..

وفى هذه الحالة يكون قد وصل إلى مرتبة الكفر ، والعياذ بالله ، وهى المرتبة التى وصل إليها إبليس حين استكبر أن ينفذ أمر الله بالسجود .. ولذلك وصفه الله سبحانه وتعالى بأنه من الكافرين .

وهنا .. ولأن الكبر دخل فى نفس إبليس ولم ينطق به .. ولأن الكفر ملأ نفسه ولكنه لم يعلنه .. أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون إبليس شاهدا على نفسه بالكفر .. حتى لا يأتى يوم القيامة وينكر ذلك أو يحاول أن يلتمس الأعذار .. وبذلك ليكون إبليس شهيدا على نفسه .. كما سيكون الكافرون شهداء على أنفسهم يوم القيامة .

ولنوضح هذه النقطة قليلا .. الله سبحانه وتعالى يعلم ما تخفى الأنفس وما تكن الصدور .. وهو يعلم السر وما هو أخفى من السر .. والسر هو الذى تهمس به إلى أحد من أصدقائك أو إخوتك الذين تثق بهم .. على أن يكون هذا فى الخفاء أى بينك وبينه ، دون أن يعلمه أحد غيركما .. أى أن السر يشترك فيه أثنان . ولكن ما هو أخفى من السر هو ما تخفيه فى صدرك ولا تبوح به لأحد أبدا .. ولكنه يبقى فى صدرك وحدك ولا تبوح به لأحد أبدا .. والله سبحانه وتعالى حين أعطى للإنسان حق الاختيار جعله شهيدا على نفسه .. بمعنى أن الإيمان يمر بتجربة عملية مشهودة .. لأن القول غير العمل .. فأنت حينما يأتى إليك شخص يطلب منك شيئا قد تعده به .. ولكن عندما يأتى وقت التنفيذ تتكاسل ، أو تجد أن الأمر صعب ، أو تجد أن المسألة محتاجة منك إلى جهد .. فلا تترجم ما قلته إلى عمل .. فأنت حين يقال لك لاتكذب ، ولا تسرق ، ولا تشرب الخمر إلى آخره .

من السهل على النفس البشرية أن تقول نعم لن أفعل ذلك .. وهذا ليس اختبارا حقيقيا للإيمان .. ولكنك لو وجدت المال الحرام أمامك تستطيع أن تأخذه دون أن يراك أحد .. فإنك فى هذه الحالة قد تضعف ، وتسول لك نفسك أن تمد يدك إلى المال الحرام .. رغم إنك قد عاهدت الله على ألا تمد يدك .. وأنت حين تجلس فى مجالس الخمر قد تمتد يدك لتتناولها ضعفا منك أو إغراء ممن يتناولون الخمر حولك .

وهكذا جعل الله أحداث الدنيا اختبارا عمليا للإيمان وتمحيصا لما فى الصدور .. وهو يبلوك بالخير والشر ليرى أتطيعه فى الخير وتنفق فيما يرضى الله .. أم تنفق فى المعاصى .. وليرى إذا كنت ستصبر على الشر وتحمد الله .. أم ستضيق نفسك وترتكب ما يغضب الله .. وليس هذا عن عدم علم الله بما ستفعل .. ولكن لتكون شهيدا على نفسك يوم القيامة .. تماما كما تأتى للطالب فى العام الدراسى وتسأله هل أديت واجبك ، واستذكرت دروسك فيقول نعم .. فتقول سأمتحنك .. الأستاذ عندما يمتحن تلميذه لا يمتحنه ليزداد منه علما . أو لأنه يجهل ما يعلمه التلميذ ، فهو الذى علمه .. ولكن ليكون التلميذ شهيدا على نفسه .. فإذا رسب فى الامتحان وجاء يجادل أستاذه .. والإنسان أكثر شىء جدلا .. إذا حدث ذلك أخرجت له ورقة الامتحان أمامه ، وأريته إجابته فلا يستطيع أن ينطق .. وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى عن الحساب يوم القيامة :

﴿ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾

(سورة الإسراء - الآية ١٤)

ولذلك شاء عدل الله سبحانه وتعالى أن يجعل إبليس شهيدا على نفسه فقال :

﴿ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾

(سورة الحجر - الآية ٣٢)

وقال سبحانه :

﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ ﴾

(سورة الأعراف - الآية ١٢)

ويجب ألا نأخذ هذا الاستفهام من الله سبحانه وتعالى .. أنه عدم علم بما في صدر إبليس من الاستكبار .. فالله تبارك وتعالى يعلم لماذا لم ينفذ إبليس أمر السجود لآدم رغم أن إبليس لم ينطق بذلك .. ومن هنا فإن هذا السؤال ليس استفهاما . فعلم الله سبحانه وتعالى يحيط بكل شيء .. ولكن لكي يكون إبليس شهيدا على نفسه يوم القيامة .. وفعلا فإن إبليس الذى ركبه الكبر والغرور نطق ليشهد على نفسه شهادة الكفر فقال :

﴿ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة الحجر - الآية ٣٣)

وقال سبحانه :

﴿ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴾

(سورة ص الآية ٧٦)

.. وقال سبحانه :

﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾

(سورة الاسراء - الآية ٦١)

وهكذا شهد إبليس على نفسه بالكفر ورد الأمر على الآمر .. وأخرج الكبر الذى كان يعلمه الله والذى أخفاه إبليس فى صدره فقال :

﴿ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾

(سورة الحجر - الآية ٣٣)

أى أنك يارب خلقت من هو أدنى منى ثم أمرتنى أن أسجد له .. وهكذا أنكر على الله سبحانه وتعالى الأمر .. وقال أنا خير منه .. أى أنه لم يتعال فقط على آدم .. بل تعالى على أمر الله له بالسجود لآدم .. فقال أنا خير منه .. وكأن علمه والعياذ بالله يفوق علم الله الذى خلقه .. وأضاف فى حيثيات حكمه هذا :

﴿ خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾

.. وفى كلا الأمرين تظهر حماقة إبليس التى قادته إلى الكفر .. وغباء إبليس الذى أدى إلى طرده من رحمة الله .. فهو يقول فى الحيثية الأولى :

﴿ لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون ﴾

.. ثم يضيف فى الحيثية الثانية :

﴿ خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾

وهنا يعترف إبليس بأن الله هو خالقه وهو خالق آدم .. وهذه حقيقة لم يستطع إبليس أن ينكرها لأنه مهما بلغ من الكبر ، فإنه لا يستطيع أن يدعى أنه خلق نفسه .. وما دام إبليس يعترف بأن الله هو الخالق .. فإن الذى خلق هو أعلم بمن هو خير .. ولا يعلم هذه الحقيقة إلا الخالق فليس هناك من هو أدرى بخلقه من خالقهم .. فإذا كان الله سبحانه وتعالى هو الذى خلق .. وهو العليم بخلقه قد كرم آدم .. فهل يأتى المخلوق ويقول للخالق :

« أنا خير منه »

وهل المخلوق أعلم من الخالق بما هوخير وما هو شر .. ان الذى يصنع شيئا هو أدرى الناس بصنعته .. فإذا صنع انسان آلة مثلا فهو أدرى الناس بها .. وكل من يستخدم هذه الآلة يأخذ علمه من صانعها .. فإذا صنع آلة أخرى هى خير من الآلة الأولى .. ثم قال ذلك للعالم أجمع فلا أحد يستطيع أن يناقشه لأنه هو الصانع وهو الأدرى بصنعته .

فإذا كان ذلك يصدق فى دنيا البشر فما بالك مع الله سبحانه وتعالى .. أيأتى مخلوق والعياذ بالله ليقول لخالقه أنا خير منه .

أيستطيع مخلوق مهما علا وبلغ أن يقول لخالقه أنا خير من فلان الذى خلقته .. أليس هذا غباء وعدم فطنة .. ولكنه الكبر يعمى الصدور .. ويوقف العقول .. ويجعل المخلوق يحسب بغروره أنه لا عليم غيره ولا حكيم سواء .. ولو كان هذا الكبر عن عمل أو عن علم .. لكان

هناك التماس لعذر ما .. ولكن إبليس لم يعمل شيئا تميز به عن آدم .. ولم يعلم سر خلقه ولا سر خلق آدم .. ومع ذلك فقد دفعه الكبر إلى الكفر .. ودفعه الكفر إلى أن يرد الأمر على الله .. ويقول انه خير من آدم .. لأنه خلق من نار وآدم خلق من طين .. وهل مادة الخلق هى التى تميز مخلوقا عن مخلوق .. أم أن الله سبحانه وتعالى الذى خلق ووضع الأسرار والصفات فى هذا وذاك .. وهو وحده جل جلاله الذى يقول من أفضل مِن مَن .. لأننا نعلم أنه هو الذى خلق .. وهو وحده الذى يعلم من هو خير من من .. ولا يستطيع أحد أن يدعى هذا العلم .

وهكذا نطق إبليس بالكفر ورد الأمر على الآمر .. وقال لا أسجد لأننى أنا خير منه .. وأوهمه الجهل أنه يعلم بينما هو لا يعلم شيئا .. حينما فعل إبليس ذلك .. قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ ﴾

(سورة الحجر)

وقال سبحانه :

﴿ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة ص)

وقال سبحانه :

﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

معصية إبليس

فى هذه اللحظة التى نطق فيها إبليس بالكفر طرده الله سبحانه وتعالى من رحمته .. وطرده الله سبحانه وتعالى من جناته .. وطرده الله سبحانه وتعالى من عظيم نعمه .. وجعل عليه اللعنة إلى يوم القيامة .. وجعله من المرجومين .. وهنا خرس إبليس الذى كان يقول لله أنا خير منه .. فلم يستطع حين طرده الله أن يفعل شيئا .. أو كما قال أنا خير منه ورد الأمر على الله .. وكما قال لن أسجد ورد الأمر على الله .. كان يستطيع أن يقول لو أن له حولا وقوة لن أخرج .. ولكنه فى السجود وعدم استخدام مشيئة الله فى أنه جعله مختاراً فى أن يسجد أولا يسجد .. أما عندما قال له الله اخرج منها .. فقد كان ذلك أمراً من الله سبحانه وتعالى لا يستطيع إبليس أن يعارضه لأن الله جل جلالُه لم يعطه الاختيار فى أن يخرج أولا يخرج ..

وقال الله سبحانه وتعالى لإبليس :

﴿ عليك اللعنة ﴾ ... ﴿ وعليك لعنتى ﴾

أى اللعنة على عمومها من كل طائع لى مسبح بحمدى سواء كان من الملائكة أو من البشر أو من كل ما خلق الله .. وفوق لعنات هؤلاء جميعا فإن عليه لعنة الله التى هى أكبر وأقوى من كل هذه اللعنات والتى ستتبعه إلى يوم القيامة حيث يخلد فى النار .

وهنا يثور سؤال .. لماذا لم يلق الله سبحانه وتعالى بإبليس فى النار فى اللحظة التى أعلن كفره فيها ورد الأمر على الآمر .. نقول ان الله سبحانه وتعالى قد أخذ على نفسه عهدا بأن يوم القيامة هو يوم الحساب ، ومن أصدق من الله حديثا .. ولذلك لم يكن الله ليغير أمره

ويأخذ بإبليس ويلقيه فى جهنم فى التو واللحظة .. بل كان لابد أن ينتظر إلى يوم الحساب ، لأن الله لا يخلف وعده .. تماما كما يمهل الله الكافرين فى الدنيا ولا يأخذهم ليلقى بهم فى النار لحظة كفرهم .. والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾

(سورة فاطر ـ ٤٥)

هنا تضاءل إبليس وأحس بالذنب الذى ارتكبه .. تضاءل بعد أن كان مستكبراً على الله يرفض السجود ويقول أنا خير منه .. تضاءل ليقول :

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

(سورة الحجر ـ الآية ٣٦)

هنا تضاءل إبليس ولو كان يملك من الأمر شيئا لتصرف بذاتية قوته .. ولكنه اتجه إلى الله يطلب منه أن يبقيه حتى يوم القيامة .. إلى أن تقوم الساعة .. ثم بعد ذلك يفعل به ما يشاء .. وفى هذا نرى أن القوة لله جميعا .. وأن إبليس لا يستطيع أن يبقى نفسه يوما واحداً على قيد الحياة .. أو ينجى نفسه يوما واحداً من العذاب .. فبماذا توسل إبليس إلى الله .. هل توسل له بعطاء الألوهية الذى أنكره .. لو أنه توسل له بهذا ما استجاب له الله لأنه كفر بعطاء الألوهية وأنكره .. ولكنه توسل إليه بعطاء الربوبية .. فالله رب العالمين وهو الذى استدعى هذا الخلق كله إلى الوجود .. وبما أنه سبحانه وتعالى رب لكل المخلوقات ..

المؤمن والكافر ـ فقد أعطى عطاء ربوبيته للجميع .. المؤمن والكافر أعطاهم مقومات حياتهم بلا تمييز .. وكفل لهم حقوقهم بلا تمييز .. فلا يجوز أن يعتدى إنسان على إنسان بغير حق كان ذلك الإنسان مؤمنا أو كافراً .. ولذلك قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾

(سورة الإسراء ـ الآية ٣٣)

ولم يقل ولا تقتلوا المؤمنين إلا بالحق .. ولكنه قال النفس على إطلاقها .. وقال :

﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

(سورة الأنعام ـ الآية ١٠٨)

وهكذا شاء عدل الله سبحانه وتعالى أن يكون عطاء ربوبيته لكل من استدعاهم للوجود متساويا .. وإنما الذي يختلف فيه الناس هو عطاء الألوهية .. فمن آمن به سبحانه وتعالى إلها كرمه فى الدنيا والآخرة .. ومن لم يؤمن عاقبه الله بذنبه .

تضاءل ابليس وتوسل إلى الله بعطاء الربوبية أن يبقيه إلى يوم يبعثون ، وقال : « فبعزتك » أى أنه توسل إلى الله سبحانه وتعالى بأن الله عزيز وغنى عن خلقه جميعا .. ولا يضيره .. ولا ينقص من ملكة شيئا .. ولا يمس عزته .. أن يبقى إبليس إلى يوم القيامة أولا يبقى .. وحينئذ قال الله :

معصية إبليس

﴿ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ۝٣٨ ﴾

(سورة الحجر)

حينئذ وحين تيقن إبليس أنه سيبقى إلى يوم القيامة طفحت عوامل الشر المخفية فى نفسه والكراهية الشديدة لبنى آدم الذى كان سببا فى طرد إبليس من رحمة الله .. وأفصح إبليس عن نواياه :

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

(سورة الحجر ـ الآية ٣٩)

وهنا نتوقف عند قول الله سبحانه وتعالى « بما أغويتنى » .. إذا كانت الغواية من الله فكيف يحاسب إبليس .. نقول لمن يسأل هذا السؤال .. انه لا شىء يقع فى كون الله دون ارادته .. والله سبحانه وتعالى شاء أن يخلق الإنس والجان مختارين .. فهذه مشيئة الله .. ولا يمكن لأحد أن يدعى أنه خلق مختاراً بذاته .. أو أنه أعطى حق الاختيار لنفسه .. إذن كانت مشيئة الله فى أن يخلق الإنس والجان مختارين .. ومن هذه المشيئة اختار إبليس الكفر .. فلو أن الله سبحانه وتعالى خلقه مسخراً لكان خاضعا لا إرادة له ـ ولكنه أعطاه الإرادة .. فبدلا من أن يختار الإيمان اختار الكفر .. وكان يستطيع أن يختار الإيمان .. إذن فالغواية أساسا تمت لأن إبليس خلق مختارا .. خلق يستطيع الاختيار بين البدائل .. ولكن الكفر وقع لأن ابليس اختار المعصية بدلا من أن يختار الطاعة وحيث إن الله سبحانه وتعالى لم يجبره على اختيار الكفر .. يكون إبليس قد اختار الكفر لنفسه وبإرادته

التى لم يتدخل فيها أحد .. اختار الكفر بذاته فاستحق العقاب .. ولكن هذا الاختيار أمكن أن يقع لأن الله سبحانه وتعالى أعطاه الإرادة الحرة فى أن يفعل أولا يفعل .. ولكن الله لم يكرهه على الكفر .. ولكن الذى اختار الكفر بإرادته هو إبليس .. وهكذا نعرف معنى الآية الكريمة :

﴿ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

(سورة الحجر - الآية ٣٩)

وقال سبحانه :

﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين ﴾

أى بعزتك وأنك عزيز مستغن عن خلقك .. لك كمال صفاتك من ذاتك .. لا تحتاج لخلق من خلقك .. بعزتك هذه أعلم أنك لن تجبر أحدا على الإيمان قهراً .. ولذلك فإننى سأنتقم من بنى آدم وأزين لهم الدنيا وأجملها فى أعينهم .. وأزين لهم الشر .. وأزين لهم المعصية .. وأزين لهم البعد عن صراطك المستقيم .. وأزين لهم الباطل .. ولكن هل قال إبليس أنه سيفعل هذا مع الناس على إطلاقهم .. لا .. فإن هناك عطاء ألوهية يحمى المؤمن ويحرسه .. وينجيه من كل شر ومن كل أغواء .. وعطاء الألوهية يحرس المؤمنين .. لذلك قال إبليس :

﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾

هنا نقف وقفة .. هل قال إبليس هذا منة منه على عباد الله المخلصين ؟ .. أو رحمة بهم من أن يوسوس لهم بما يؤدى بهم إلى العذاب والتهلكة .. لا .. فهو يكن العداوة لبنى آدم كلهم .. وهو يحاول

أن يغوى كل من هو على الصراط المستقيم .. ولكنه قال هذا لأنه يعرف أن عطاء الألوهية يحرس عباد الله المخلصين .. وهنا أراد الله أن يوضح هذه النقطة فقال :

﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾

وهنا لابد أن نلاحظ استخدام الله سبحانه وتعالى لكلمة عباد .. فهناك عبيد .. وهناك عباد .. كلنا عبيد الله .. المؤمن فينا والكافر .. والمطيع منا والعاصى .. ولكن عباد الله هم الذين أخلصوا دينهم لله .. ولذلك نجد الله سبحانه وتعالى حين يخاطب المؤمنين فى القرآن الكريم إنما يستخدم لفظ عباد .

﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾

(سورة إبراهيم ـ الآية ٣١)

وقال سبحانه :

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَـٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴿٦٤﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

ولذلك فإن قول الله :

﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾

لا يسرى على كل خلق الله .. ولكنه ينطبق على كل مؤمن مخلص لله فى عبادته .. ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إلا من اتبعك من الغاوين ﴾

أى من كان مخلصا لله سبحانه وتعالى من عباده المؤمنين ثم بعد ذلك فسق وغوى وابتعد عن المنهج .. كفر بعد إيمان وعصى بعد طاعة .. فؤلاء إن فعلوا ذلك لم يصبحوا عبادا لى .. بل أصبحوا عبيدا وخرجوا عن حماية عطاء الألوهية لهم من غواية الشياطين .. ويقول الله :

﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا ﴾

أى أنه من توكل على الله فإن الشيطان لا يستطيع أن يصل إليه .

ويبين الله سبحانه وتعالى طريق الغواية الذى سيتبعه الشيطان فيقول :

﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ (١٧) ﴾

(سورة الأعراف)

أى أن الشيطان سيحيط بالإنسان من كل جهة .. ويحاول غوايته والوسوسة له .. ولكن هناك جهتين لا يأتى منهما الشيطان أبدا .. فلم يقل ومن تحتهم لأن ذلك مكان السجود ولم يقل ومن فوقهم لأن ذلك مكان رفع الصلوات والدعاء إلى الله .. وهنا يبين الله سبحانه وتعالى أن كيد الشيطان لا يؤثر على ملك الله فعندما يقول الشيطان أنه سيأتى

للإنسان من الأمام والخلف واليمين والشمال ويحيط به .. يقول الله تحقيراً لشأن الشيطان ومن يتبعونه :

﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ ﴾

(سورة الإسراء ـ الآية ٦٤)

الشيطان يتوعد الإنسان ويقول إنه سيغرر به فى الدنيا عن طريق التزيين وأنه سيحيط به ليغويه فى كل لحظة .. والله سبحانه وتعالى يقول له بل افعل أكثر من هذا .. أملأ آذان من استطعت منهم بصوتك .. وارهبهم بالقوة سواء كانت من الخيل أو راجلة تمشى على أقدامها وشاركهم فى الأموال وفى الأولاد .. كيف يحدث ذلك ؟ .. هل للشيطان صوت نسمعه .. هل للشيطان قوة حربية تحاربنا ؟ .. هل للشيطان أموال وأولاد ؟ .. نعم .. كل قوى الشر فى العالم يستخدمها الشيطان .. فهناك من الذين كفروا من ينطقون باسمة وينشرون الكفر والإلحاد .. وهناك جنود الشيطان الذين يحاربون الحق ويعتدون على الآمنين ويبيدون الشعوب المؤمنة ويخنقونها سواء أكان اقتصاديا أم عسكريا .. وهناك المال الحرام الذى يزينه الشيطان للناس فيرتكبون به المعاصى .. هذه مشاركة الشيطان فى المال يحوله من حلال إلى حرام .. وهناك مشاركة الشيطان فى الأولاد أن ينشأوا على غير طاعة الله وينشأوا وقد عرفوا المعاصى ولم يعرفوا الطاعة .. كل هذا متاع الغرور ، أى ليس حقيقة .. ولكنه مجرد غرور وكبر فى الدنيا .. ثم تأتى

نهاية الحياة فلا يأخذ الإنسان معه شيئا إلا المعاصى .. يترك المال .. ويترك القوة .. ويترك الجاه .. ويترك السلطان .. ولا يجد إلا الله ليوفيه حسابه .. كل ما فى الدنيا هو متاع الغرور إلا الطاعة مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾

.. والغرور هنا معناه الوعد الكاذب الذى لا يتحقق .. أى أن وعود الشيطان وما يزين به للناس المعصية ما هو إلا كذب لا يمت إلى الحقيقة بصلة .

بقيت بعد ذلك نقطتان .. النقطة الأولى .. هل كان إبليس يعيش مع الملائكة وقت أن أصدر الله سبحانه وتعالى الأمر بالسجود .. بعض الناس قالوا إن الجن والملائكة كانت تعيش ذلك الوقت فى مكان واحد .. ولكن هذا القول يضع قيودا على قدرات الله سبحانه وتعالى .. ذلك أن الله سبحانه وتعالى لا يحده زمان ولا مكان .. ولذلك فإنه ليس من موجبات وصول أمر السجود إلى إبليس أن يعيش مع الملائكة فى مكان واحد وقت صدور الأمر بالسجود .. ولو كان إبليس يعيش فى آخر الدنيا .. والملائكة يعيشون فى السموات العليا فإن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يوصل أمر السجود إلى الملائكة ، وإبليس فى نفس اللحظة رغم بعد المسافة .. والله لا زمان عنده ولا مكان .. لأن الزمان والمكان من خلق الله .. ولذلك فهذه ليست قضية تثار .. ولا جدلا يستحق الرد .

والنقطة الثانية هل كان إبليس يعيش فى الجنة ثم طرد منها بعد

المعصية مصداقا لقول الله :

﴿ فاخرج منها فإنك رجيم ﴾

وقوله تعالى :

﴿ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾

(سورة الأعراف ـ الآية ١٣)

.. وقول الله فأخرج منها لا يعنى مكانا على وجه التحديد فقد يكون الطرد من رحمة الله سبحانه وتعالى .. وقد يكون الطرد من نعم الدنيا والآخرة .. وقوله تعالى : ﴿ فاهبط منها ﴾ ليس معناه هبوط المسافات التى نتحدث عنها .. وإنما معناه ذلة فى القدر وحطة فى القيمة وتنزيل من مقام على إلى أسفل سافلين .. والخروج منها يكون خروجا من نعم الله سبحانه وتعالى كلها .. وأنت تقول أن فلانا هبط فى نظرى .. ومعنى ذلك أنه وصل إلى درجة من الانحطاط بحيث أصبحت أنظر إليه نظرة احتقار .. ولا يوجد ما يجزم أن إبليس كان يعيش فى الجنة قبل المعصية .. ولا أنه كان يعيش مع الملائكة .. وسواء كان خروج إبليس معنويا أو حسيا .. فإن المعنى لا يختلف فى أن الله طرده من كل نعيم كان يعيش فيه .. وأنزله من كل مقام كان له إلى أسفل سافلين ، والمهم فى هذا كله أنه يرينا شدة غضب الله عليه .. وشدة تحقير الله له .. وهذا ما يجب أن نفهمه دون الدخول فى جدل حول هذا الموضوع ..

نأتى بعد ذلك إلى معصية آدم .. وكيف استطاع إبليس أن يوقعه فى المعصية .. وهذا هو موضوع الفصل القادم ..

الفصل السادس

خطيئة آدم

خطيئة آدم

كثير من الناس يدعون أن خطيئة آدم هى سبب خروج الإنسان من الجنة .. وتجد منهم من يقول لك انه لولا أن آدم أخطأ وعصى ربه لكنا نعيش فى جنات النعيم بدلا من ذلك الشقاء الذى يملأ الأرض .. بل ان بعض النظريات التى وضعها الإنسان ونسبها إلى الله زورا هو أننا نعذب فى الأرض بسبب خطيئة .. وأن هذه الرحلة الأرضية بما فيها من عذاب إنما هى تكفير للخطيئة التى ارتكبها آدم فى الجنة ، والتى أدت إلى طرده هو وذريته منها .. وأنه لابد أن يكون هناك من يتحمل آلام البشرية وخطيئتها حتى نعود للجنة من جديد .. فإن هناك من يدعى أن هناك من نزل من السماء .. وأمضى أسبوعا من الآلام فى الأرض ليحمل عن بنى آدمخطاياهمويطهرهم من خطيئة آدم .. ولذلك نسمع عن أسبوع الآلام والبكاء والدموع إلى آخر ما نسمعه .

وهذه النظرية البشرية مبنية على أن العقوبة تورث ، أى أن ذرية آدم قد ورثوا مع ما أخذوه من صفات جسدية قد ورثوا المعصية عن آدم .. وأن هذه المعصية تورث من جيل إلى جيل إلى جيل حتى قيام الساعة .. وأننا لابد أن نبكي وأن ننتحب طالبين المغفرة من خطيئة آدم .. كل هذا يقال وتجد كثيراً من الناس يأتون بأشياء ونظريات واهية .

والذى أحب أن أبينه قبل أن نبدأ هذا الحديث أن آدم خلق ليعيش فى الأرض حياة دنيوية .. وأنه فى ساعة الخلق قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾

إذن آدم خلق ليكون خليفة لله فى الأرض وليعمرها .. ولم يخلق أساسا ليعيش هو وذريته فى الجنة .. ولكنه خلق لينزل إلى الأرض ويعيش فيها .. ثم تأتى الآخرة ، ويكون هناك ثواب وعقاب .. فيدخل المؤمنون الجنة ويعذب الكافرون فى النار ، وهذا هو قدر الله الذى أراده لبنى آدم .. ولو أن آدم استمر فى الجنة .. فكيف يمكن أن يكون هناك حساب وثواب وعقاب .. وخطيئة وتوبة .. وإيمان وكفر .. إلى آخر ما فى الحياة الدنيا .. فكيف كان يمكن أن يكون لآدم ذرية ولا تناسل فى الجنة .

والحديث عن خطيئة آدم ، وأننا نتحمل هذه الخطيئة ونعذب بها فى الدنيا .. حديث يتنافى مع عدل الله سبحانه وتعالى .. لأن الله لا يعذب أحدا بذنب أحد ، ولا يعذب إنسانا بخطيئة انسان آخر .. فالله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ ولا تزر وازرة وذرى أخرى ﴾

أى أن أحداً لا يتحمل ذنوب الآخر .. وإنما يحاسب كل شخص على ما ارتكبه من ذنوب وآثام .. كل انسان يحاسب على عمله من حسنات وسيئات وطاعات .. أما قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾

(سورة العنكبوت الآية ١٣)

فذلك ليس معنى أن الإنسان يتحمل خطأه وخطأ غيره .. بل ذلك قول الله سبحانه وتعالى عن المضلين الذين يضلون الناس فى الأرض ..

ويزينون لهم طريق المعصية .. فهؤلاء يحملون أوزارهم أو معاصيهم التى ارتكبوها .. ويحملون أيضا أوزار أو معاصى الذين أضلوهم بغير علم ، لأنهم كانوا السبب وعملوا على أن يزينوا للآخرين طريق المعصية والضلال .. فهم فى هذه الحالة يحملون وزرين أو معصيتين .. وكلا الوزرين أو المعصيتين هو من أعمالهم .. فالمعصية الأولى الاثم الذى ارتكبوه .. والمعصية الثانية الاثم الذى دفعوا غيرهم إلى ارتكابه بتزيينه لهم بالباطل وترغيبهم فيه .. وهذا القول متمش مع عدل الله سبحانه وتعالى فى أنه :

﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾

وفى ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (من استن سنة حسنة فله أجرها ، وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة . ومن استن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة) .

والسؤال الذى يثيره البعض هو أنه إذا كان الشيطان قد أغوى آدم ، وجعله يأكل من الشجرة المحرمة فطرد من الجنة .. فما ذنبى أنا لأطرد معه وأعيش فى شقاء الدنيا وكبدها ..

السؤال بهذه الطريقة هو بعيد ومجاف للحقيقة .. فآدم لم يكن يعيش فى جنة الآخرة كما يفهم بعض الناس .. ولم يطرد من جنة الآخرة حتى يقال أنه طرد من جنة الخلد .. بل إن الجنة التى كان يعيش فيها آدم لم يكن فيها خلود .. ولم يكن فيها من النعيم ما فى الجنات التى وعد الله بها المتقين فى الآخرة .. بل كانت تجربة عملية يريد الله بها أن يبين

لآدم وذريته كيف يكون اغواء الشيطان وما هى نتيجته .. وكيف أن الغفلة تدخل اغواء الشيطان إلى النفس البشرية .. وكيف أن الشيطان عدو للإنسان .. وكيف أنه كاذب فى كل وعوده التى يمنى بها الإنسان ليقوده إلى معصية الله .

والله سبحانه وتعالى لم يطلق فى القرآن الكريم لفظ الجنة على جنات الآخرة فقط .. ولكنه أطلقه على كل مكان ظليل تتوافر فيه الثمار والحياة الطيبة .. وبذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَـٰبٍ وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة الكهف الآية ٣٢)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة سبا الآية ١٥)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ

لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾

(سورة البقرة)

وهناك آيات كثيرة فى القرآن الكريم تعطينا الدليل القاطع على أن الله سبحانه وتعالى أطلق لفظ الجنة على جنات فى الدنيا .. وأن قول الله سبحانه وتعالى لآدم :

﴿ فلا يخرجنكما من الجنة ﴾

ليس معناه الخروج من جنة الآخرة أو من الجنات التى أعدها الله للمؤمنين فى الآخرة . لأن آدم وذريته المؤمنة سيدخلون الجنة فى الآخرة .. ولكن الله سبحانه وتعالى لم يرد أن يلقى آدم وذريته إلى الحياة الدنيا ، حتى يبين لهم بطريقة عملية كيف أن الشيطان سيكون عدوا لهم وكيف سيوسوس لهم الشيطان ليقودهم إلى النار . ولنبدأ خطوة . خطوة .

الله سبحانه وتعالى حين خلق آدم وقال للملائكة اسجدوا لآدم ، وسجدوا إلا إبليس . أراد الله أن يبين لآدم أن ابليس عدو له . وأنه سيحاول أن يجعله يفسد فى الأرض ويهلك الحرث والنسل . ويعصى أمر الله ولا يحصد إلا الندامة والعذاب . فقال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ ﴾

(سورة طـه)

أول شيء حدث - حتى يكون عدل الله كاملا - أن الله نبه آدم إلى ما يريد أن يفعله إبليس . فقال له : أن هذا أى إبليس عدو لكما . هنا من القرآن الكريم نعرف أن آدم حينما عاش فى المكان الذى وصفه الله بأنه جنة كانت معه زوجته حواء . أى أن الله بعد أن خلق آدم خلق حواء وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾

(سورة النساء الآية ١)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾

(سورة الروم الآية ٢١)

وهكذا نعرف أن الله خلق آدم .. ثم خلق حواء من آدم .. وهكذا تمت مرحلتان من مراحل الخلق الأربع .. وهى : خلق بدون ذكر أو أنثى وهو خلق آدم .. وخلق من ذكر بدون أنثى وهو خلق حواء .. ولقد خلق الله حواء من ضلع آدم .

خطيئة آدم

إذن فبداية حياة آدم كانت من ذكر وأنثى .. وهكذا وضع قانون التكاثر لآدم ولكل مخلوقات الله من ذكر وأنثى كما بينا من قبل .. بين الله سبحانه وتعالى لآدم وحواء إبليس ونواياه . وقال إن هذا عدو لكما .. وأنت إذا قلت لأى إنسان إن هذا الشىء عدو له .. فإنك تريد أن تحذره منه .. فإذا جاءه بنبأ لا يصدقه .. وإذا اقترب منه ابتعد هو عنه .. أو اتخذ موقف الاستعداد ليواجهه وينازله .. وإذا طلب منه أن يفعل شيئا . فإنه لا يفعله لأنه يعلم أن فى هذا الشىء هلاكه مادام الذى جاء به عدوا له .. وإذا أعطاه الطعام والشراب وقال له كل من هذا فلا يأكل منه ، لأنه قد يكون قد دس السم له ليقتله .. وإذا حدث ونسى ذلك الإنسان ما قلته له محذرا بأن هذا عدو له .. تكون فى هذه الحالة أنت قد أبرأت ذمتك .. ويكون الوزر على ذلك الذى لم يستمع التحذير .

ومن هنا نرى أن الله سبحانه وتعالى شاء عدله قبل أن يدخل آدم ليبدأ مهمته أن يحذره من الشيطان .. وأن يقول له إن الشيطان عدو يريد له الأذى والهلاك .. فكانت هذه هى البداية بالتجربة التى سيمر بها آدم .. والتى تمثل تجربة عملية لما سيحدث له فى الحياة فى الأرض ، حتى لا يقول يارب أنت لم تحذرنى من الشيطان .. ولو أنك يارب حذرتنى منه وقلت لى أنه عدو لى وانه يريد إيذائى .. يريد أن يهلكنى .. لو أنك قلت لى يارب ذلك لما أطعته يارب أبدا .. ولما استمعت إلى وسوسته .. ولكنك ياربى ألقيتنى فى الحياة الدنيا دون أن تبين لى عداوة الشيطان .. فحسبت أنه صديق وأنه ناصح أمين .. فاتبعته ياربى فكيف تحاسبنى الآن فى الآخرة على ما حدث منى بوحى من الشيطان ..

وحتى لا يقول الإنسان ذلك لله فى الآخرة وقت الحساب .. وما أكثر

الأعذار التى سيقولها الإنسان فى وقت الحساب .. حتى لا يحدث ذلك .. جاء الله بهذا وقال لآدم ان الشيطان عدو لك فاحذره .. وأنا أقول لك ذلك حتى لا تأتى فى الآخرة وتقول : ياربى لا تحاسبنى ..

وهنا يجب أن نعرف أيضا أن التحذير لابد أن يسبق الفعل .. بمعنى أنه إذا وقع شىء يغضبك ولم تحذرنى منه من قبل فإن الحساب لا يكون عدلا .. ولكن إذا حذرتنى ثم وقع منى الفعل وعاقبتنى يكون العقاب عدلا .

وبعض الناس يتساءل كيف كلم الله آدم ؟ ونحن نقول انه إما أن يكون كلمه مثلما كلما موسى عليه السلام .. وإما أن يكون كلمه وحيا .. وكلا الأمرين ليس موضع جدل .. فالمهم أن الله قد أبلغ آدم أن ابليس عدو له وهنا يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ ﴾

(سورة طـه)

قول الله سبحانه وتعالى يخرجنكما من الجنة فتشقى ، هو الذى أثار الجدل حول الجنة التى كان يقيم فيها آدم وزوجته .. وقد بينا أن لفظ الجنة أطلقه الله سبحانه وتعالى على جنات السموات والأرض .. ولكن قول الله سبحانه وتعالى ﴿ فتشقى ﴾ قد أثار جدلا .. ذلك أن معنى أنه يخرج آدم وزوجته من الجنة فيشقيان أنهما كانا فى نعيم فحرما منه ..

ويبنى بعض الناس على ذلك أن هذا النعيم الذى كان يعيش فيه آدم وحواء هو الموجود فى جنات الآخرة .. ولكن الآيات التى تلت هذه الآية تصف لنا الجنة التى كان يعيش فيها آدم ، والنعيم الذى كان فيه وهو نعيم محدود جدا بالنسبة لنعيم الجنة فى الآخرة .. فالله يقول لآدم :

﴿ إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ﴾

أى أن فى هذه الجنة الثمار والطعام الذى يحتاجه آدم فى حياته متوافرا بلا جهد .. فهو لا يجوع فيها لأن الطعام أمامه متوافر دائما .. ولا يعرى لأن الله قد أعطاه اللباس الذى يستره أو قد ستر عنه وعن حواء عورتيهما . واللباس هو ستر العورة .. أى أن آدم فى هذه الجنة لا يحتاج إلى جهد فى الحصول على طعامه هو وزوجته .. وفى الحصول على اللباس الذى يستره « **وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى** » أى أن آدم فى الجنة التى كان يعيش فيها الماء فيها متوافر .. وهو لا يتعب ولا يبذل جهدا للحصول على ماء أو طعام أو لباس .. بل يعيش فى الظل والنعم التى منها مقومات حياته أمامه دون تعب أو جهد .

هذا هو وصف الجنة التى عاش فيها آدم التجربة العملية المحسة قبل نزوله ليباشر مهمته فى الأرض .. أين ذلك من جنات الآخرة .. التى فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وجنة الآخرة أولا هى جنة الخلد .. أى فيها الخلود .. والجنة التى كان يعيش فيها آدم لم تكن جنة الخلود كما سنبين بعد ذلك ... ويقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ

﴿فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾

(سورة فاطر)

ويقول سبحانه :

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ
﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ
طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾﴾

(سورة الواقعة)

ويقول الحق :

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى
وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾
خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾

(سورة المطففين)

ويقول تبارك و تعالى :

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾
وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ
عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن

فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا
زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ
مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ
رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾

(سورة الانسان)

وإذا شئت تستطيع أن تعود إلى القرآن الكريم وتقرأ ما ذكره الله سبحانه وتعالى عن الجنة فى الآخرة .. لتجد أن الوصف مختلف تماما عن الوصف الذى أورده الله سبحانه وتعالى عن الجنة التى كان فيها آدم وزوجته .. فالجنة التى كان يعيش فيها آدم فيها نعيم محدود .. وجنة الآخرة فيها نعيم بلا حدود .

وهكذا فإن الجنة التى كان يعيش فيها آدم لم تكن جنة الخلد أو جنة الآخرة .. فكل الأعذار التى يحاول بعض المفسرين أن يسوقوها ليجيبوا عن السؤال الذى يقول : كيف دخل إبليس الجنة ليوقع آدم وزوجه فى المعصية .. والتى يحاول البعض جاهدا أن يقول أنه دخل على هيئة كذا أو كذا .

نقول لهم أن الله لا يريد من أحد عونا على كلامه .. إن هذه الجنة لم تكن جنة الخلد .. وإبليس محرم عليه دخول جنة الخلد ولم يدخلها ولن يدخلها .

كفل الله لآدم وزوجته مقومات حياتهما بلا تعب ولا نصب .. فى مكان فيه ثمار وماء وكل مقومات الحياة .. ثم بعد ذلك علَّم الله سبحانه وتعالى آدم المنهج فقال له :

﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وكان هذا أول بيان لمنهج الله فى افعل ولا تفعل .. والله سبحانه وتعالى أعطى لآدم وأباح له نعما كثيرة .. أباح له كل الثمر الذى فى هذه الجنة .. وأن يأكل ما يشاء ، فى أى وقت يشاء وحرم عليه شجرة واحدة . وإذا نظرنا إلى منهج الله فى الأرض نجد أن الله سبحانه وتعالى قد أباح من الطيبات الكثير .. وحرم القليل والقليل جدا .. فكل مقومات الحياة الطيبة مباح للإنسان من الطعام والشراب والأكل الحلال والمال والحلال .. ومن الثياب ومن العمل والكسب .. ولو أحصينا المحرمات لوجدناها قليلة جدا بالنسبة للمباحات .. وهذا رحمة من الله بخلقه .. فلو أن الله حرم الكثير وأباح القليل .. لكان المنهج مشقة لا يستطيع ولا يقدر عليها الكثيرون .. ولأنه أباح الكثير وحرم أقل القليل ، جعل الدين يسرا .. وخفف عن عباده وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾

(سورة البقرة ـ آية ١٨٥)

وهنا أيضا نأتى إلى أن الله سبحانه وتعالى قد وضع مبدأ العدالة فى الأرض .. وأنه لا عقوبة بدون تجريم .. فلابد أن يأتى التجريم أولا ثم بعد ذلك تأتى العقوبة .. فإذا تمت العقوبة بدون تجريم لم يكن العقاب

عدلا .. فأول شيء هو أن تجرم الفعل .. فلا بد أن تقول أولا إنك إذا قتلت فستعاقب بكذا ، وإذا سرقت فستعاقب بكذا .. وإذا فعلت كذا فستعاقب بكذا .. وهذا لابد أن يأتى قبل أن يقع الفعل بحيث إذا وقع تمت العقوبة .. أما أن يصدر قانون بأثر رجعى .. أى يطبق قبل أن يعلن تجريم الفعل فهذا ليس عدلا .. ولا يتفق مع منهج الله الذى جرم الفعل أولا .. فقال :

﴿ ولا تقربا هذه الشجرة .. ﴾

وحدد العقوبة فقال : فتكونا من الظالمين .. وقال :

﴿ فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ﴾

وهكذا بين الله منهجه لآدم فى افعل ولا تفعل .. وقال ان هناك أشياء قد جرمتها ومنعتها . و أنا أخبرك بها أولا قبل أن يقع الفعل منك حتى إذا وقع الفعل يكون العقاب عدلا .. وكان هذا الإعلام هو أول إبلاغ عن دين الله للإنسان .. وأول وحى علمهم ما يجب أن يكونوا عليه فى حركة حياتهم .. ولكن الله سبحانه وتعالى لم يكن ليخرج آدم إلى حركة الحياة فى الأرض بدون أن يدربه تدريبا عمليا يباشر فيه واقع التجربة .. ولا يرسله الله للأرض بكلام نظرى دون واقع عملى يثبته ويبينه .. لأن الإنسان قد يأخذ كلاما نظرياً يقتنع به .. ولكن حين يأتى التطبيق العملى يتعذر عليه أن يجعل التطبيق متمشيا مع المنهج النظرى .

وهكذا شاءت رحمة الله بآدم ألا ينزله إلى الأرض بمنهج نظرى أن افعل كذا ولا تفعل كذا .. إلا بعد أن يربيه تربية دينية على المنهج .. ويبين له عمليا ما يصادف الإنسان المؤمن من إغواء الشيطان واغرائه .. فإذا تمت التجربة العملية وعاشها آدم كواقع ، نزل إلى

الأرض ليباشر مهمته ، وهو مدرب لا بالتوجيه فقط ولكن بالتجربة .. فلم يكن الله ليخبر آدم بمنهج نظرى ثم يعاقبه على ما يقوم به .. ماذا قال الله لآدم : كُلَا من كل شىء ولا تقربا هذا الشجرة .. وهذا أمر بافعل ولا تفعل .. ثم حذره من اغواء الشيطان وعداوته له .. وحذره من أن الشيطان سيجعله يقع فى الخطيئة .. وهنا بدأ اغواء الشيطان .. يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾

(سورة طـه)

الشيطان جاء لآدم فى المكان الذى يعيش فيه وهو ليس جنة الخلد كما بينا من قبل وقال له :

﴿ يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾

واستخدم الله سبحانه وتعالى لفظ « **فوسوس** » والوسوسة هى صوت الحلى ورنينها .. أى أن الشيطان جذب آدم بزينة الدنيا وهى المال والحلى والشهوات .. ماذا قال الشيطان لآدم ؟

﴿ قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد ﴾

ومعنى هذا أن آدم لم يخلق ليخلد فى هذه الجنة .. ولو أنه خلق كما سيحدث فى جنة الآخرة ما استطاع أن يغويه الشيطان ويعده بأنه سيحقق له الخلود .. إذ ماذا يهم آدم مادام قد خلق فى جنة الخلد وأنه

خلق خالدا أن يعصى أمر الله ليحصل على الخلود . فى حين أنه هو فعلا خالد بحكم خلقه .

إذن الجنة التى كان يعيش فيها آدم لم تكن جنة الخلد .. وإلا لما أغراه الشيطان بالخلود .. وهنا نرى كيف أن الشيطان يستغل غياب التفكير السليم عن الإنسان .. أو يستغل الغفلة كما نسميها .. فلو أن هذه الشجرة تهب الخلد فعلا فلماذا تضرع الشيطان إلى الله أن يبقيه إلى يوم الدين .. إنه كان يستطيع أن يأكل من هذه الشجرة ، ويحصل على الخلود ، ويمضى فى الكبر الذى بدأه ..ولكن الشيطان يعرف أن هذه الشجرة لا تعطى خلدا .. ولا شيئا إلا السوء ... ولكنه أراد بالكذب أن يغرى آدم حتى يعصى الله ويأكل من هذه الشجرة .. وكان على آدم أن يتنبه أن الشيطان إذا كان يستطيع أن يمنح الخلد لمنحه لنفسه أولا .

وأضاف الشيطان فى اغوائه لآدم « **وملك لا يبلى** » أى مال ونعيم لا ينتهى .. وهاتان آفتا الإنسان فى الأرض .. فالإنسان يبحث عن خلود ولا يريد أن يموت أبدا .. والإنسان فى حياته يخشى أمرين .. أما أن يفارق النعمة وإما تفارقه .. يفارق النعمة بأن يموت ويترك كل ما يملك ويتنعم به فى الحياة الدنيا .. وتفارقه النعمة أى أن تزول عنه لأى سبب من الأسباب .. كأن يكون غنيا ويصبح فقيراً .. أو أن يكون ذا جاه ونفوذ فيذهب عنه الجاه والسلطان .. ذلك هو هم الإنسان فى الدنيا وخوفه منها أن يفارق النعمة .

ومن هنا تأتى وسوسة الشيطان فى المعصية .. إذا أردت ألا تفارقك النعمة فافعل كذا وكذا .. اسرق .. زور .. نافق .. اقتل من يعترض طريقك .. افعل كل ما نهى عنه الله ولا تبال .. فإنك إذا فعلت ذلك ولم

تبال بمنهج الله بقيت معك النعمة . ويندفع الإنسان فى المعاصى فيسرق ويقول الزور ويقتل ويرتكب كل ما حرمه الله لتبقى النعمة معه .. ولكنها رغم كل ذلك تزول .

وهب أن هذه المعاصى قد أبقت النعمة فلم تفارق الإنسان وبقيت له .. فإن الإنسان يفارقها بالموت .. وهنا تأتى وسوسة الشيطان فيجعل الإنسان ينسى حكمة الموت أو نهاية الحياة .. فيصور له أن أمامه أعواما طويلة سيعيشها .. وأن أمامه عمرا مديدا سيستمتع فيه بهذه النعمة ـ وقد يكون أجل الإنسان غدا .. ولكن الشيطان يوسوس له أنه سيعيش أعواما ..وأعواما .. وأعواما يبقيه فى الإثم حتى ساعة الموت وحينئذ لا تنفع التوبة .. ويكون الشيطان قد انتقم من الإنسان وجعله يسلك طريق النار والهلاك .. وهذا هو هدف الشيطان فى عداوته للإنسان .

ثم يمضى الله سبحانه وتعالى فيقول :

﴿ وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

إذ أن الشيطان بعد أن قال لآدم وحواء انه سيدلهما على شجرة الخلد وملك لا يبلى بعد أن زين لهما ذلك .. دلهما على الشجرة ، فإذا هى نفس الشجرة التى نهاهما الله عن أن يقتربا منها .. وهنا تردد آدم وحواء .. فمضى الشيطان يزين لهما المعصية ويقول لهما : إن الله لم ينههما عن الاقتراب من هذه الشجرة إلا أنهما لو أكلا سيكونان من

الملائكة ويحصلان على الخلود .. وتلك أيضا كذبة استخدمها الشيطان فى الاغراء .. فآدم وحواء لم يخلقا نفسيهما ، ولكن الله هو الذى خلقهما . فكيف يتحولان إلى ملكين ؟ والملائكة مخلوقة من نور .. والإنسان مخلوق من طين .. كيف يتحولان من الطين إلى النور بدون إرادة الخالق الذى طلب منهما ألا يأكلا من هذه الشجرة .. ولو أن هذا كان صحيحا من أن المخلوق يملك تغيير طبيعته ومادته بدون مشيئة الخالق .. لاختلطت الأجناس والمخلوقات .. وأصبحت السموات والأرض مجموعة من الفوضى .. ثم أن لكل مخلوق قوانين تتناسب مع مادته .. فالإنسان وقد خلق من طين له قوانيه التى تتناسب مع مادته .. والجان التى خلقت من نار لها قوانين تتناسب مع مادتها ، فهى ترانا ونحن لا نراها .. مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾

(سورة الأعراف الآية ٢٧)

فالجان لأنه من مادة شفافة وهى النار لا نستطيع نحن المخلوقين من طين أن نراها .. والملائكة المخلوقة من مادة أكثر شفافية وهى النور ترانا ولا نراهم .. ونحن فى حساب الزمن نتحرك ببطء ونقطع المسافات ببطء مهما كانت السرعة التى نسافر بها .. والجان له قدرة أسرع على الحركة .. ويرينا الله سبحانه وتعالى ذلك حين يقول فى قصة سليمان وبلقيس فى (سورة النمل الآية ٣٩)

﴿ قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين ﴾

أى أن عفريت الجن عرض على سليمان أن يحضر له عرش بلقيس من اليمن قبل أن تصل بلقيس ورجالها .. وكانت بلقيس وقومها قد غادروا بلدهم منذ فترة من الوقت .. على أن هذا العفريت سيقطع المسافة التى يقطعها الإنسان فى أسابيع أو شهور .. يقطعها فى ساعة أو أقل من ساعة ..

إذن فقوانين الجان مختلفة عن قوانين الإنسان .. وقوانين الملائكة تختلف أكثر وأكثر .. فكيف يمكن لآدم لمجرد أكله من الشجرة أن يتحول من مخلوق من طين إلى مخلوق من نور .. ومن الذى سيحوله .. ، أهو ثمرة الشجرة التى حرمها الله .. وهل لديها القدرة على ذلك ؟ وهل تستطيع وهى مخلوقة لله أن تقوم بمثل هذا التحويل لطبيعة الأشياء ... طبعا مستحيل .

وهكذا يرينا الله سبحانه وتعالى أن الشيطان لا يدخل إلى النفس البشرية إلا مع الغفلة .. وإلا مع غياب التفكير الإيمانى السليم .. وأن كل ما يعد به الشيطان لو تمعنا فيه لوجدناه غرورا كاذبا .. ولكن مع هذا فإنه باندفاع الناس إلى حب الدنيا ينسون التفكير السليم .. وفى طمع بنى آدم فى أن يحصلوا على ما تمليه عليهم أهواؤهم يندفعون فى طريق يرفضه العقل وترفضه الفطرة السليمة .

﴿ وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين ﴾

أقسم الشيطان لهما أنه ناصح أمين لمصالحهما يريد لهما الخير .. أقسم الشيطان بمن ؟ فقد كفر بالله وهل يقبل قسم من كافر ؟ .. وهل الكافر له عهد يرجى .. أو له قسم يصان ؟

رغم أن آدم وحواء قد حذرهما الله ونهاهما عن الاقتراب من هذه

الشجرة .. وأباح لهما كل ثمار الجنة .. يأكلان منها متى شاءا ، وحيثما شاءا .. ورغم أن الله قد حذرهما أن الشيطان لهما عدو مبين .. وأنه يريد أن يخرجهما من الجنة التى يعيشان فيها ، ورغم أن الشيطان قد استخدم حججا فى اغرائه لآدم لا تتمشى مع العقل ولا المنطق ولا قدرة الشيطان ، فقد صدقه آدم وتناول هو وزوجه ثمار الشجرة يأكلان منها ليتحولا إلى ملكين خالدين ويكون لهما ملك لا ينتهى أبدا .

فماذا حدث بعد ذلك .. وأى نتيجة وصلا إليها .. ؟ هل تحولا إلى ملكين فعلا... هل وصلا إلى الخلود الذى يبحثان عنه .. وإلى الملك الذى لا ينتهى أبدا .. وإلى النعمة التى لا تزول .. أم أنهما أضاعا ما فى أيديهما ووصلا إلى حالة سيئة من الشقاء .. ؟

إن ذلك هو موضوع الفصل القادم ..

■■■

الفصل السابع

ونزل آدم إلى الأرض

ونزل آدم الى الأرض

أقدم آدم وزوجته على الأكل من الشجرة التى نهاهما الله عنها .. ورغم كثرة المباح فى الجنة التى كانا يعيشان فيها .. وأن المحرم هو شجرة واحدة من مئات أو ألوف الأشجار التى كانت فى الجنة .. إلا أن الشيطان استطاع أن يخدعهما ويغرر بهما ويقودهما إلى المعصية .. ولابد هنا أن نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى عندما حرم على آدم وحواء أن يأكلا من هذه الشجرة لم يقل لهما .. لا تأكلا هذه الشجرة ، بل قال لهما لا تقربا هذه الشجرة .. ما هو الفرق فى أن يقول الله لا تأكلا وبين أن يقول لا تقربا .. لو أن الله قال لا تأكلا من هذه الشجرة .. لكان المنهى عنه هو الأكل فقط .. ولكان المباح أن يذهبا ويجلسا بجوار الشجرة ، ويتأملا ظلالها وأوراقها ، وربما تنبعث رائحة جميلة منها فيتمتعان بها .. ولكن قوله تعالى :

﴿ **لا تقربا** ﴾ معناه لا تقتربا من هذه الشجرة حتى مجرد قرب .. ولا تجلسا لتتأملا فيها .. بل إذا رأيتماها فابتعدا عنها تماما .. لماذا ؟ لأن محارم الله يجب أن يبتعد عنها الإنسان حتى لا يقع فيها .. لأن القرب من الشجرة قد يبدأ بعده إعجاب بالثمار .. والإعجاب بالثمار قد يؤدى إلى قطف ثمرة منها لنتأملها دون أن نأكلها .. فإذا وصلت إلى هذه الدرجة فإنك فى الغالب ستقع فى المعصية وتأكل الثمرة .. وكذلك ما حرم الله .

إن كل معصية إذا اقتربت منها فإنك ستقع فيها .. الذى لا يشرب الخمر مثلا إذا جلس مع الذين يشربون كانت الخطوة الأولى أنهم سيدعونه مرة ومرات إلى كأس ، أو إلى أن يتذوق قطرة منها .. فإذا رفض أخذوا يزينونها له ، ويحاولون اغراءه بأن فيها فوائد للناس ..

ويعيرونه بأنه لم يبلغ مبلغ الرجولة حتى يشرب ، وأخيراً سيقع فى المعصية ويشرب الخمر ..

إننا فى كل أحداث المعاصى التى نراها بالنسبة للخمر تبدأ بكأس واحدة ، وتحت الحاح شديد .. ثم بعد ذلك يبدأ تناول الخمر والإدمان عليها .. كذلك كل المعاصى اذا اقتربت منها فإنك تفتح باب الشيطان فى نفسك ، فتقع فى المعصية .

إذن فلا تقربا أبلغ وأشد فى الاحتياط من لا تأكلا .. ولذلك أراد الله بقوله ﴿ **لا تقربا** ﴾ أن يجنب البشر ذلك القرب الذى يغريهم على المعصية ويفتح فى نفوسهم الباب أمام هوى النفس واغراء الشيطان .. ولذلك يلاحظ فى القرآن الكريم أن كل شىء محرم يقول الله سبحانه وتعالى بشأنه :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾

(سورة البقرة ـ الآية ١٨٧)

أى لا تقربوا المعاصى أو مجالسها .. ابتعدوا عنها .

وإذا تتبعنا تسلسل معصية آدم وإغراء الشيطان له نجد أن الشيطان قد بدأ بقوله :

﴿ **هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى** ﴾

واستطاع أن يجذب آدم ويقربه من مكان المعصية .. وعندما اقترب آدم من الشجرة وقع فى المعصية ، وأكل من ثمرها .. وبما أن التجربة العملية التى مر بها آدم هى للبشرية كلها .. أراد الله سبحانه وتعالى أن

يفصلها تفصيلا ، حتى يعرف كل إنسان من ذرية آدم كيف تتم المعصية ، وما هو الطريق الذى يقود إليها .. فلا يأتى يوم القيامة مجادلا بأنه لم يعرف ولم يخبر بذلك مقدما حتى يحاسب فى الآخرة ..

أكل آدم وحواء من الشجرة .. وعصيا الله وحينئذ ماذا حدث ؟ هل تحولا إلى ملكين ؟ .. هل حصلا على ملك لا يبلى ؟ .. لم يحدث ذلك .. يقول الله تعالى :

﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ﴾

(سورة طـه)

.. ويقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

لما أكل آدم وحواء من الشجرة ظهرت عورتاهما وأسرعا يأخذان من أوراق الشجر الموجود فى الجنة ما يخفيان به هذه العورة .. فكأنما الشيطان يريد دائما أن يظهر عورة الإنسان فيغريه أولا بالشر .. ثم يوحى إليه من التصرفات ما يجعل الفضيحة تقع. وهو يغريه بالسرقة مثلا .. فمتى اتخذ الإنسان الشيطان وليا .. وسمع اغواءه وسرق ، فإنه

يغويه بأحداث تكشف سرقته للناس وتريهم أنه لص .. فالشيطان عدو للإنسان وهو يريد أن يظهر كل سيئة فيه حتى تلك التى سترها الله سبحانه وتعالى .

والإنسان إذا تبع الشيطان صار مفضوحا فى كل أمره .. وهكذا عرف آدم وحواء الشيطان قد كذب عليهما ، وعدهما غرورا ، ليكشف عن عوراتهما التى كانت مستورة .. وهنا كان الجزاء .

قال الله سبحانه وتعالى لآدم وزوجته ألم أنهكما عن هذه الشجرة ؟ .. ألم أبح لكما من الطيبات ما يكفى حياتكما ويزيد ؟ .. ألم أقل لكما لا تقربا من هذه الشجرة ؟ .. لقد كنت أريد لكما الخير .. ألم أحذركما من الشيطان أنه لكما عدو مبين .. كنت أريد لكما الخير وخلقته ويسرته لكما .. وكان الشيطان يريد بكما الشر وأوقعكما فى المعصية .. فلماذا اتبعتما الشيطان وعصيتما أمر الله .. ولم يجد آدم وحواء عذرا لما حدث .. لقد كان أمامهما الحلال الطيب واتجها إلى الحرام الخبيث .. وكان أمامهما الخير واتجها إلى الشر .. ولكن آدم وحواء قابلا المعصية بطريقة أخرى غير التى قابلها بها الشيطان .. فالشيطان قال :

﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾

(سورة الأعراف ـ ١٢)

ويقول الحق أيضا :

﴿ قال لم أكن لأسجد لبر خلقته من صلصال من حمأ مسنون ﴾

فرد الأمر على الأمر .. ولكن آدم وحواء :

ونزل آدم الى الأرض

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

(سورة الأعراف ـ ٢٣)

أى أنك يارب الإله الحق الذى يعلم كل شىء .. ويعلم أين الخير وأين الشر .. ونحن يارب مؤمنون بك إلها .. فأنت لم تظلمنا يارب .. وحاشا لله أن يوصف بالظلم .. ولكننا نحن الذين ظلمنا أنفسنا وأوردناها مورد التهلكة وإن لم تغفر لنا وترحمنا نكون من الخاسرين .. أى خسرنا النعم التى سخرتها لنا فى الجنة التى كنا نعيش فيها وخسرنا الجزاء بالخلود فى الجنة فى الآخرة .

وفرق بين من يتهم نفسه بأنه ظلمها ويعترف أن أمر الله هو الحق .. وأنه لم يقدر على حمل نفسه على الطاعة .. وبين من ينكر على الله والعياذ بالله حكم ألوهيته .. وهكذا شرعت الخطيئة والتوبة فى الأرض .. وفتح الله باب التوبة للإنسان حتى إذا أخطأ يقول : يارب ظلمت نفسى وعدت إلى الحق فتقبل توبتى .. ولذلك فإنك إذا أنكرت حكما من أحكام الإسلام نقول لك أأنت تنكر أحكام الله .. فإذا قلت نعم فأنت والعياذ بالله كافر .. إذا لم تصل مثلا .. وسألناك لماذا لا تصلى فقلت أنا لا أومن بالصلاة ولا أصدقها .. وهذه الصلاة ليست عبادة .. وليست لها أى حكمة .. فأنت فى هذه الحالة قد كفرت .

ولكنك إذا قلت ان الصلاة حق وأن الله سبحانه وتعالى قد فرضها وأنا مؤمن بها .. ولكنى لا أستطيع أن أحمل نفسى عليها .. ففى مرات أنسى .. وفى مرات أتكاسل .. فأنت عاص تجب عليك التوبة والرجوع إلى منهج الله .

ونزل آدم الى الأرض

وهكذا أراد الله أن يُرى البشرية كلها .. وقبل أن تبدأ حياة البشر على الأرض .. الفرق بين الكفر والعصيان ..

عندما نصل إلى هذه النقطة تكون التجربة العملية قد انتهت .. فالله سبحانه وتعالى خلق آدم وكرمه وفضله وأباح له من الطيبات ما يحفظ مقومات حياته .. ولكن الشيطان جاء ليفسد هذا كله ويقود الإنسان إلى المعصية .. وهنا تدخل الضعف البشرى والطمع البشرى .. ليجعل الإنسان يخرج عن منهج الله ، وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾

(سورة طه ـ الآية ١١٥)

وهكذا يكون آدم قد تم اعداده اعداد عمليا ليمارس مهمته على الأرض .. وأنه قد يبين له المنهج فى أن الله سبحانه وتعالى سيبيح له أشياء كثيرة .. ويحرم عليه أشياء قليلة .. ثم دخل فى تجربة عملية ظهر فيها ان الشيطان كاذب .. وأنه يريد أن يوقع آدم فى التهلكة .. ثم وجدت المعصية فعصى ربه .. ثم شرعت التوبة لأن آدم اعترف بأنه ظلم نفسه .. وبعد هذا الإعداد العملى الذى مر فيه آدم بتجربة الطاعة والمعصية نزل إلى الأرض ليمارس مهمته .

﴿ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥) ﴾

(سورة الأعراف)

ونزل آدم الى الأرض

نلاحظ قول الله سبحانه وتعالى اهبطوا مع أن آدم وحواء اثنان فقط .. ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ بعضكم لبعض عدو ﴾

فكيف يتم الخطاب لاثنين فى قوله « **بعضكم لبعض** »

والذين يقولون ذلك لا يتنبهون إلى أن آدم قد خلق وفى ظهره كل ذريته إلى يوم القيامة .. ذلك أن أولاد آدم كلهم من آدم .. وأجدادهم فيهم من آدم .. لأنهم أخذوا من أولاده وأحفاده أحفادهم فيهم من آدم لأنهم أخذوا عن أحفاده الذين أخذوا عنه .. ونوضح ذلك .. لو أتينا بإناء فيه لون أحمر ثم جئنا بإناء أوسع به ماء ووضعنا فيه هذا اللون يكون فى السائل الجديد جزئيات من اللون الأحمر وإن كانت أقل تركيزا .. وإذا جئنا باناء ضخم هائل مملوء بالماء ووضعنا فيه السائل المختلط باللون الأحمر يكون فى الاناء الجديد اللون الأحمر فى جزئيات أقل وهكذا .. أنت أخذت من ابيك .. وأبوك أخذ عن جده .. وجده أخذ عن جد جده ، ونظل نسلسل هذا حتى نصل إلى آدم .. فأنت فيك جزء من آدم .. وهكذا كان قول الله سبحانه وتعالى خطابا للبشرية كلها التى هى ذرية آدم .. وحين يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ بعضكم لبعض عدو ﴾

.. فإنه ينبهنا إلى أن آدم خلق يمثل أنواعا من البشر : نوع بنوه معصومون لا يعصون الله .. ونوع مؤمن .. يقع فى الخطأ والخطيئة ويتوب .. ونوع يكفر بخالقه .. ومادام آدم أبا لكل هذه الأنواع فلا بد أن يتمثل فى خلقه وتكوينه الأنواع كلها .. النوع المعصوم بالنبوة .. والنوع المؤمن الذى ينسى ويعصى ولا يملك أن يسيطر على نفسه أمام

نزواته وشهواته ولكنه يتوب إلى الله .. ونوع والعياذ بالله يكفر بخالقه ويعبد الشيطان .. وبما أنه سيكون من ذرية آدم النبى والمؤمن والكافر .. فهؤلاء جميعا سيقع بينهم صراع .. فالإيمان دائما يقابل بصراع من الكافرين الذين يريدون أن يحتفظوا بترف الدنيا ويظلموا الناس ويحاربوا كلمة الحق .. كما أن النزوات والشهوات المختلفة المتعارضة بين الناس .. تجعل بعضهم لبعض عدوا فى صراعات الدنيا ، فكأنما العداوة تأتى من نوعين : عداوة بين الكفر والإيمان .. أو الحق والباطل .. وعداوة بين الكفر والكفر وهو صراع النزوات والأهواء .. ولكن لا توجد عداوة بين الإيمان والإيمان .. لأن المؤمنين قد وحد الله هدفهم بمنهج واحد لا يشذون عنه وجمعهم على الهدى ، ولم يجعل فى أنفسهم صراعات الدنيا بنزواتها وأهوائها ..

وهكذا كان خطاب الله لآدم على ما سيحدث لآدم وذريته بعد الهبوط إلى الأرض ..

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧ ﴾

(سورة البقرة)

عندما نزل آدم إلى الأرض تلقى صيغة الاستغفار والتوبة إلى الله سبحانه وتعالى من المعصية التى ارتكبها .. وظل آدم نادما على أنه عصى الله يردد كلمات التوبة ، وهى أول صلاة وتضرع لله من الإنسان على الأرض .. وهنا تاب الله على آدم .. أى غفر له خطيئته التى ارتكبها ، ولم تصبح هناك خطيئة تحملها البشرية على اكتافها إلى يوم القيامة .

لقد تمت التوبة وقبلها الله وبدأت صفحة جديدة من حياة آدم على

الأرض .. وهكذا لا يحمل كل منا على كتفيه خطيئة آدم كما يدعى البعض .. بل كل منا يحمل خطاياه وأعماله وحده .

ولقد ضرب الله فى القرآن عدة أمثلة لذلك .. واختار سبحانه وتعالى الأنبياء حتى لا يقول أحد لماذا ضرب الله بى مثلا ، فيحمل على كتفيه وزرا .. بل نقول جميعا مادام أن الله ضرب هذه الأمثلة بالأنبياء الذين هم قمة الإيمان .. فهى بالأولى تطبق علينا جميعا .

ضرب الله مثلا بالعم الذى يمثل منزلة الأب فى ابراهيم .. وبالابن فى نوح .. وبالزوجة فى لوط ونوح .. وبالزوج فى امرأة فرعون .

والأب والابن والزوج والزوجة هم أقرب الناس بعضهم إلى بعض .. ومع ذلك فكفر من هو فى منزلة الأب أو العم بالنسبة لإبراهيم لم يمس إيمان ابراهيم ومنزلته عند الله .. وكفر ابن نوح وامرأته لايمسان قدر نوح ومنزلته .. وكفر امرأة لوط لا يمس منزلة لوط .. وكفر فرعون لم يمس إيمان امرأة فرعون .. وفى هذا يريد الله سبحانه وتعالى أن يؤكد لنا أن أحدا لا يحمل يوم القيامة على كتفيه إلا أوزاره .

ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يافاطمة بنت محمد . أنا لا أغنى عنك من الله شيئا ، لا يأتينى الناس بأعمالهم يوم القيامة ، وتأتون أنتم بأنسابكم) .. وفى هذا إيضاح وتأكيد بأن التوبة على آدم قد محت معصيته فى التجربة الإيمانية التى مر بها .. وان البداية على الأرض بداية جديدة تماما .

حينما أمر الله سبحانه وتعالى آدم أن يهبط على الأرض حدد له طريق الإيمان .. وقال سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا

﴿خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾

(سورة البقرة)

وهكذا حدد الله المنهج لآدم وذريته فقال : ان الهدى سيأتى منى على نفس الأسس التى حدثت لآدم فى الجنة بافعل ولا تفعل .. سأقول لكم هذا حلال فافعلوه ، وهذا حرام فاجتنبوه .. وقد خلقتكم صالحين للطاعة وصالحين للمعصية .. وجعلت لكل منكم مقعدا فى الجنة ومقعدا فى النار .. فالذى يتبع هدى الله ويعمل بمنهجه يأخذ مقعده فى الجنة ويرى مقعده فى النار حتى يحس بالفوز العظيم الذى حصل عليه بالإيمان .. وكيف نجاه الله من عذاب رهيب .. والذى يعصى الله ويكفر به يتبوأ مقعده من النار .. ويريه الله مقعده فى الجنة ليعرف كم خسر .. وكيف أنه خسر خسرانا مبينا .

وهكذا أنبأ الله البشرية كلها من أول بدايتها بأنه ستكون هناك رسالات من السماء تحمل هدى الله إلى الإنسان .. وان هذه الرسالات ستأتى لتذكر الإنسان بالمنهج .. وتبين له العذاب الذى ينتظره على جريمة المعصية والكفر .. والرسالات تأتى عندما تنسى البشرية منهج الله ، وتحيد عنه ، وتنطلق فى هواها ونزواتها ويضلها الشيطان ويبعدها عن المنهج ..

ولقد اختار الله أولئك الذين يحملون منهجه إلى بنى آدم من البشر .. من ذرية آدم .. لماذا ؟ .. لأن الرسول فى حياته يمثل تطبيقا عمليا لمنهج الله .. ولذلك فهو لا يأتى بالمنهج من الله ليقول : افعل كذا

ولا تفعل كذا ، ثم يختفى بعد ذلك .. ومادام قد جاء بالنظرية فقد أنهى مهمته .. ومن يطبقها يطبقها ومن لايطبقها لا يطبقها .. ولكنه جاء بالمنهج وتطبيقه .. فهو يأتى بالمنهج ويطبقه على نفسه أولا ، ويكون قدوة لمن يتبعونه .. وهؤلاء ينقلون القدوة إلى من بعدهم وهكذا ..

ولكى يكون الرسول مطبقا للمنهج ، فلابد أن يكون بشرا .. ذلك لأنه لو كان ملكا أو فى مرتبة أعلى من البشر لقال الناس : لقد حملنا الله ما لا نطيق .. فهذا ملك له قدرات ليست لنا .. وهذا رسول له قدرات فوق قدراتنا .. ولكن كون الرسول بشرا .. وكونه جاء وطبق المنهج على نفسه فهذا دليل على أن هذا المنهج فى قدرة البشر ، ويستطيعون أن يطبقوه على أنفسهم ، لأن الرسول له نفسه قدراتهم .. فلا يقبل عذر لأحد بعد ذلك من أن يقول أن منهج الله فوق قدرات البشر .

ثم يوجه الله سبحانه وتعالى قوله للبشرية كلها محذرا من الشيطان ووسوسته ، مذكرا بالتجربة التى مر بها آدم فيقول :

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) ﴾

(سورة الأعراف)

أى أن الله سبحانه وتعالى يذكر خلقه بأن العورة التى كشفها إبليس عندما أغرى آدم على المعصية وأوقعه فيها قد علم الله الإنسان كيف يرتدى لباسا ليسترها ويداريها .. بل أن الله سبحانه وتعالى زاد على ذلك بأن أعطى الإنسان الرفاهية .. فلم يعطه الضرورى من الملبس ، بل أعطاه الريش أى الرفاهية .. وأعطاه فوق ذلك لباس

التقوى .. أى أن التقوى تستر عيوب الإنسان وتداريها .. وتظهر الطيب منه وتنميه .. فالإنسان الذى يلزم التقوى هو انسان مظهره طيب وخلقه طيب ، ولباسه طيب ، لأن الملبس الذى أمر به الله للرجل أو المرأة يغطى كل العورات ، ولا يظهر منها شيئا .. ويجعل مظهر الإنسان طيبا ومقبولا ..

والإنسان المؤمن إنما يحاول أن يجمح شهوات الإيذاء والإساءة والضرر للآخرين فى نفسه .. فكأن التقوى هى لباس يستر بها كل هذه العيوب التى تسىء إلى الناس ، وتجعلهم ينفرون منه .. والنفس التى تنشأ فى تقوى الله هى نفس طيبة .. تسعى دائما للخير وتصبر على المكاره .. وهى نفس محببة تساعد المحتاج وتنصر المظلوم وتحسن إلى الناس .. فالله سبحانه وتعالى صور التقوى على انها لباس لأنها تستر السيىء وتمنعه من الظهور .. وتجعله مختفيا .. وتتعامل بالقيم ولاتقدم على ما يعيب .

ويقول الله ان ذلك خير .. أى أن الإنسان المؤمن أو الجماعة المؤمنة هى للخير للبشرية كلها .. تنشر الخير أينما وجدت .. وتمنع الشر كلما استطاعت .. وذلك من آيات الله سبحانه وتعالى أن جعل الإيمان بهذه الصورة الجميلة ليتذكر الناس كيف أن الإيمان ينشر الخير .. وينشىء المجتمع المستقر المنسجم مع نفسه ومع الكون كله .. فإذا تذكر الناس ذلك انضموا إلى مواكب الإيمان التى فيها صلاح البشرية كلها ..

ويوجه الله سبحانه وتعالى تحذيره إلى البشرية كلها بقوله تعالى :

﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ

﴿ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

يوجه الله تحذيره للبشرية كلها ، لأن الشيطان الذى أمهله الله إلى يوم القيامة سيواصل عداوته للإنسان .. وسيحاول ان يخرجه من الجنة كما أخرج أبويه آدم وحواء .. وسيتم ذلك بطريق الفتنة والإغواء .

يريد الله أن يلفتنا إلى أن الشيطان سيحاول أن يفتننا بالزيف عن الحقيقة .. كيف ذلك ؟ ان منهج الله يوجهنا إلى النفع الحقيقى فى الحياة الدنيا والآخرة .

ولنضرب مثلا يقرب ذلك للأذهان .. هب أننى أملك مزرعة للقمح جاءت بمحصول عشرة أرادب .. أنا أولا أبقى من هذه الأرادب العشرة أردبين لأزرعهما فى الموسم القادم .. ثم اتصرف فى الباقى .. ما أبقيته هذا أنقصته من انتفاعى العاجل به .. فقد كنت أستطيع أن أبيعه وأستفيد بثمنه .. وكنت أستطيع أن آكله وأستفيد منه .. ولكن لو فعلت ذلك أكون قد فعلت الصواب أو الخطأ .. لو أننى بعت الأردبين أو أكلتهما أكون قد فعلت الخطأ رغم أننى حققت نفعا عاجلا .. ذلك أنه سيأتى الموسم القادم وليس لدى بذرة ، ويضيع كل شىء وبذلك لا أجد ما آكله ولا ما أبيعه وأجد نفسى فى ضيق .

والإنسان يريد النفع لنفسه .. وكل انسان يريد النفع لنفسه .. ولكن هناك من يتعجل النفع .. مثل ذلك الذى باع بذرة الموسم الزراعى القادم أو أكلها .. وهناك من يعرف أين النفع مثل ذلك الذى أبقى هذه البذرة .. وكلنا يقينا نعرف أن هذه الحياة ستنتهى .. ولم يخلد انسان واحد حتى الأنبياء .. لم يفلت انسان واحد من الموت .. والله سبحانه

وتعالى قدوعدنا بأن يمتعنا فى الآخرة التى هى دار الخلود .. وسيكون التمتع فيها على قدرة الله سبحانه وتعالى .. أى فوق قدرة البشر مجتمعين .. ولقد كنت فى شيكاغو فى الولايات المتحدة الأمريكية .. وأراد بعض الناس أن يبهرونى .. فانزلونى فى أحدث الفنادق التى تتم فيها الخدمة بالعقول الالكترونية والتى تفنن المهندسون فى وضع لمسات الجمال والمتعة والرفاهية فيها .. وقالوا ما رأيك فى هذا التقدم ؟ ..

قلت : إذا كانت هذه الرفاهية والمتعة قد استطاع الإنسان أن يوفرها للإنسان بعلمه المحدود .. فكيف المتعة فى الآخرة التى يوفرها الله بعلمه وقدرته التى هى بلا حدود لعبده المؤمن .. ولذلك فإننا يجب أن نعتبر أن الحياة الدنيا وما يضع الإيمان فيها من قيود على هوى النفس هى مقدمات للجنة .. وما يعطى فيها من نعيم على حسب قدرات الله .

والعجيب أننا نرى الأب يلاحق ابنه سنوات طويلة يسهر ويتعب ويشقى فى المذاكرة ، ويظل يلاحقه ليل نهار فإذا سألته لماذا يفعل ذلك قال لأضمن مستقبله .. ومع ذلك فإنه لا يطلب منه مرة واحدة بأن يصلى .. ولا يعاتبه على تركه الصلاة .. بينما التعب فى المذاكرة مبنى على ظن ، فقد يأتى للتلميذ أجله قبل أن يحصل على شهادته .. وقد يحصل على الشهادة ، ثم يخيب فى الحياة الدنيا ولا يحصل شيئا ، فى حين أن الإيمان جزاؤه مضمون لأنه فى الآخرة .. ولا أحد لا يصل إلى الآخرة .. ولقد وضع الله سبحانه وتعالى فى كل قوانينه ان تقدم العمل أولا ، ثم بعد ذلك تحصل على الثمرة .. فالتلميذ لابد أن يتعلم ليحصل على الشهادة .. والصانع يشقى ويتعب ليأخذ الأجر .. ولكننا نرفض أن نتعامل مع الله بنفس القوانين التى نتعامل بها فى الدنيا ، فلا نقدم

العمل الصالح حتى ندخل الجنة ..

ولذلك فإن مهمة الشيطان فى إفساد منهج الله أن يفتنك بالعاجل عن القادم .. فأنت تريد مالا لمتاع فى الدنيا ، وتنسى وأنت تسرق هذاالمال أنك تضيع المتاع الأكبر فى الآخرة وأنت لك شهوات فى الدنيا ، وتنسى أنك إذ راعيت الله فيها أعطاها لك أكثر فى الآخرة ..

ومهمة الشيطان هى أن يجعلك تستغنى بالشىء العاجل الذى له نفع ظاهرى عن النعيم الحقيقى الذى أعده الله لك .. فأنت مهما ملكت فى الدنيا فأجلك محدود وقدرة تمتعك محدودة .. فإذا نهكتها أتتك بعكس النتيجة .. فالذى يسرف فى الطعام يمرض ويحرمه الأطباء من الأكل .. والذى يسرف فى الشهوات يضعف وينهار ويحرم منها .. والذى يسرف فى السهر فى معصية الله .. يأتى عليه الوقت الذى لابد أن يختار بين أن ينام مبكراً أو ينام فى فراشه لا يقدر على الحركة .. ولكن قصر نظر الإنسان يجعله لا يقدر هذا كله .

ولذلك يحذرنا الله من هذه الفتنة .. فالشيطان من مهامه فى الحياة أن يدخل الخوف إلى النفس البشرية فيجعلها تعبده .. والإيمان مهمته ان يدخل الشجاعة والطمأنية إلى النفس البشرية ، ويجعلها تعبد الله .. وإذا جاءت قضية حق ضد صاحب نفوذ حاول الشيطان أن يدخل الخوف إلى نفسك ، ويقول لك : إياك أن تقول كلمة الحق .. أكذب ونافق واشهد الزور ، لأنك إذا قلت الحق فإن صاحب النفوذ هذا سيضرك ويقضى عليك ، فى حين أن الإيمان يقول لك : قل كلمة الحق ترضى الله والله يحفظك فهو أكبر وأقوى من كل صاحب نفوذ .. ولذلك إذا دخل الخوف من زوال الدنيا فى نفسك دخل معه الشيطان فأخذك بعيدا عن منهج الإيمان .. وبدلا من أن يكون لك إله واحد وهو الله .. أصبح لك

آلهة متعددة فأنت تريد أن ترضى هذا .. وترضى هذا .. وترضى هذا كذبا وزورا .. وفى النهاية تجد أنك خسرت الدنيا والآخرة .. وذلك هو الخسران المبين .

ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى يحذرنا من فتنة الشيطان . إنه يريد أن يخرجنا من جنة الإيمان فى الدنيا .. وما هى جنة الإيمان فى الدنيا ؟ هى الانسجام مع الكون وعبادة الله وحده .. فالذى يعبد الله يعيش عيشة راضية داخل نفسه .

انظر إلى أى انسان يفعل امرأ حلالا .. انه يقف أمام الدنيا كلها ويفعله .. ضميره مستريح تملأ الراحة نفسه .. وانظر إلى انسان يرتكب إثما تجده يتلفت حوله ، ويحرص على ألا يراه أحد .. ويخاف إذا طرق طارق الباب .. إذا كنت أنت وزوجتك فى المنزل وجاءت الدنيا كلها فأنت تستقبلها بنفس مستريحة .. إذا كنت أنت وامرأة أخرى زوجة غيرك مثلا وطرق الباب .. ماذا سيحدث لك ؟ إذا كنت تمسك فى يدك بمال حلال وعرف الناس لا يهمك شىء .. إذا كان ان المال حراما تحاول أن تخفيه ، وتنفقه سرا ، وتشقى فى اخفائه حتى لا يسألك أحد من أين جئت بهذا المال ، فتضعه باسم ابنك ، أو باسم زوجتك ، أو باسم صديق لك .. وقد يأخذه ويبدده فلا تستطيع أن تفعل شيئا ..

إذن فالمؤمن يعيش فى جنة الإيمان ، لأن ما يفعله كله حلال ، وهو لا يتعرض لفضيحة أبدا مادام يتبع منهج الله.والذى يتبع الشيطان يعيش فى شقاء الخوف من أن ينكشف أمره ، أو تظهر سوءاته للناس فيعرف الناس الحقيقة ، وحينئذ تكون عوراته قد انكشفت.فليست العورة فى الجسد فقط ولكنها فى الخلق وفى التصرفات وفى كل عمل لا يرضى الله .. ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

(سورة الأعراف آية ٢٧)

أى أن الشيطان فى عداوته الرهيبة للإنسان يتتبع كل خطواته وهو يرى الإنسان .. يراه حين يسرق بعد أن زين له السرقة .. ويراه حين يزنى بعد أن زين له المعصية .. وهو بذلك يعلم عن الإنسان أفعاله .. ويستطيع أن يستخدمها فى الإيقاع بين البشر بعضهم البعض وإثارة الفتن بينهم والعداوة والبغضاء .. ولذلك لا تجعلوا للشيطان سلطانا عليكم بارتكابكم المعاصى ، لأن الإنسان المؤمن ليس للشيطان سلطان عليه .. وكل ما يفعله لا يشين .. وكل ما يقوم به لا يحرص على إخفائه .. ولذلك لا يجد الشيطان وسيلة للإيقاع بينه وبين الناس إلا أن يسلط عليه شياطين الإنس فيؤذوه ويتهموه بالباطل .. وفى تلك الحالة يأتى الاتهام بعكس النتيجة لأن الباطل لا يقف أمام الحق ..

والله سبحانه وتعالى قد جعل الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون .. أى أن كل من استغنى عن الإيمان استغنى الله عنه .. والله كما قلنا ليس محتاجا لأحد من عباده .. ومتى ابتعد الإنسان عن الله فإن الشيطان يصبح وليه الذى يوحى له بما يفعل ..

وهكذا يضيع هذا الإنسان لأنه ملك عدوه منه .. وأنت إذا ملكك عدوك هلكت .. وعداوة الشيطان للإنسان مريرة .. فهو يريد أن يكون مصير كل بنى آدم النار .. حتى لا يلقى هو وذريته وحده فى جهنم ويتميز بنو آدم بالنعيم ..

ونزل آدم الى الأرض

إلى هنا نكون قد وصلنا إلى نهاية هذا الكتاب . الذى حاولت أن أبين فيه كيف أن الله سبحانه وتعالى حين أعد آدم لمهمته فى الحياة كرمه غاية التكريم ، وفضله على كثير من خلقه . وسخر له مافى الأرض وما فى السموات .. وبين له عداوة الشيطان . وكيف أنه لا يأتى منه إلا السوء والشر .. وأمام هذا البيان الشامل المعجز من الله سبحانه وتعالى أعطى الإنسان حرية الاختيار فيما يفعل ولا يفعل .. وصدق الله العظيم إذ قال :

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

محتويات الكتاب

رقم الايداع ٣٣٢٩ / ٩٣
I. S. B. N
977 – 08 – 0182 – 8